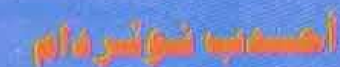
روايات عالمية للناشئة

أحدب نوتردام

فيكتور هيغو

RABIE

أحدب نوتردام
فيكتور هيغو
RABIE
20



فيكتور هيغو

تجري أحداث هذه القصة في باريس أثناء العصر الوسيط ، وتتهم الغجرية إسميرالدة بالسحر والشعوذة ، وتقدم إلى منصة الإعدام ، ولكن كازيمودو قارع النواقيس الأحدب في كنيسة نوتردام يحاول إنقاذها . فهل ينجح في ذلك ؟.

تصميم الغلاف : هيثم فرحات

دار ربيع للنشر
RABIE PUBLISHING HOUSE

أحدب نوتردام

(فيكتور هيغو)

1802– 1885

ترجمة

د. محمد نديم خشفة

ذكرى حاج حسين

إشراف : محمد كمال

إخراج فني : م. نشوان خريط



أحدب نوتردام

المسرحية

في السادس من كانون الثاني سنة 1482 ، قرعت نواقيس كنائس المدينة ونواقيس الجامعة ، توقظ الباريسيين وتدعوهم إلى احتفالين بآن واحد ، الاحتفال بيوم الملوك وعيد المجانين .

وسوف تقوم الاحتفالات في ثلاثة أماكن : في ساحة كريف ، وأمام كنيسة براك ، وأما المسرحية فتمثل في قصر العدل . فتوافد الناس رجالاً ونساءً منذ الصباح ، وأغلقت البيوت والحوانيت ، وتوجهوا إلى أحد الأماكن المذكورة . وأما العدد الأكبر من الناس فقد توجهوا نحو قاعة قصر العدل حيث تمثل المسرحية . ولعل هذا بدافع حب الباريسيين للمسرح ، يضاف إلى ذلك أن المسرحية تمثل في مكان مكشوف ومغلق ، مما يوحي بأنه عرض حقيقي . كما

أنه قد أعلن عن زواج ولي العهد بمرغريت دي فلاندر . وقد اقترح السفراء الفلمنكيون الاشتراك في مشاهدة المسرحية ، وانتخاب (بابا المجانين) الذي سيجري في القاعة الكبرى أيضاً . وسيرافق هؤلاء الحكام بعض الشخصيات الهامة ، مثل صاحب النيافة كردينال بوربون وقاضي القصر الملكي . وقد أقيمت له منصة مزينة بنسيج البروكار المذهب ، وسط القاعة في مواجهة الطاولة الرخامية الكبيرة التي ستعوض عليها المسرحية ، طبقاً للأعراف المتبعة .

المفترض أن يبدأ العرض ظهراً . وقد تأخر العرض لانتظار وصول المبعوثين الفلمنكيين . وللأسف .. انتصف النهار دون أن يظهر هؤلاء المبعوثون .

أما الجمهور الذي ينتظر منذ الصباح فقد انتشرت بينه همهمة تحولت إلى تذمر ، وارتفعت الأصوات بعدئذ بالهتاف :

– المسرحية .. المسرحية !

كانت أصوات طلاب المدارس المتعطشين للحركة والهتاف والشجار وممازحة الناس . وقد تميز من بينهم شاب أشقر الشعر وقف يهتف فوق الشرفة ، وكان اسمه يوهان فرولو ، وهو شقيق رئيس أساقفة كنيسة نوتردام الدون كلود فرولو . وتعالت الأصوات من كل جانب : المسرحية .. المسرحية !

وحاول أحد الممثلين أن يهدئ الجمهور فصرخ بأعلى صوته : سنبدأ حينما يصل صاحب النيافة الكردينال .

ولكن صوته ضاع بين هتافات الاستنكار . وصرخ الجمهور : ابدؤوا المسرحية حالاً .. ابدؤوها حالاً !

فاضطر الممثل الذي يلعب دور جوبيتر إلى البدء ، وكان شاحب الوجه بملابس حمراء ، فأمسك خوذته بيده وقال متلعثماً : أصحاب السعادة السفراء .. مدام مرغريت دي فلاندر .. وكان خائفاً من أن يشنق ، إما من طرف الجمهور إذا لم يبدأ العرض أو من طرف الكردينال إذا بدأه قبل

حضوره . فكان جوبيتر واقعاً بين مشنقتين ! ولحسن حظه فإن مؤلف المسرحية انتشله من هذه الورطة وتحمل عنه مسؤوليتها ، فقال : ابدأ فوراً .. بناء على طلب الجمهور .

واقتربت فتاتان من مؤلف المسرحية ، وسألته إحداهما :

– هل تعدنا بأن تكون المسرحية جيدة ؟

فأجاب : لا ريب في ذلك ، لأني أنا مؤلفها .. واسمي بيير غرينغوار .

قال ذلك بلهجة اعتزاز لا يجرؤ عليها بيير كورناي مؤلف مسرحية " السيد " .

وصدحت الموسيقا وارتفع الستار عن أربع شخصيات قد صبغت وجوهها بالمساحيق وارتدت ملابس زاهية الألوان . وبدأت المسرحية بأن صبت على الجمهور طوفاناً من الاستعارات والحكم والأمثال تتدفق بها أفواه الشخصيات المجازية الأربع : الشخصية الأولى تحمل مجرفة وهي مرتدية ثوباً من الخيش وتمثل العمل ، والثانية مرتدية ثوباً من

البروكار وتمثل النَّبالة ، والثالثة في ثوب من الحرير وتمثل رجال الدين ، والرابعة في ثوب من الصوف وتمثل السلعة . ونشب النـــزاع بين السيدة النبالة والسيدة السلعة ، وحينما نطق السيد العمل بهذه الجملة :

" لا تجد في الغابة وحشاً أشد فتكاً من هذا الحيوان "

فتح باب المنصة الخاصة وزأر مدير التشريفات :

– صاحب النيافة ، مونسنيور كردينال دي بوربون .

الفصل الثاني

متاعب شاعر

يالبؤس الشاعر !

إن ما كان يخشاه قد حصل ، إذ أهاج الجمهورَ دخول الكردينال ، ولم تعد تسمع سوى هذه الكلمة تتردد على الشفاه : الكردينال .. الكردينال !

وسكت الممثل ، وأما الكردينال فحيا الحضور بابتسامة زائفة وتوجه بخطوات رزينة نحو مقعده المخملي ، وجلس وكأن فكره مشغول بأمر آخر ، وتبعته حاشيته ، فأثارت مثلما أثار دخوله من الضوضاء . فهذا يشير إليهم بيده وآخر يذكر أسماءهم وثالث يزعم أنه يعرف بعضهم ..

ولم ينـزعج الكردينال لهذه الفوضى ، إذ اقتضت الأعراف أن تباح الحريات في هذا اليوم . وكان مهموماً بأمر آخر يتبعه عن كثب ، وقد دخل معه إلى المنصة في وقت

واحد : إنه سفير الفلاند . وقد كَبُر عليه وهو شارل دي بوربون كردينال فرنسا أن يساير هؤلاء الفلمنكيين ويضمه معهم مكان واحد . وحينما أعلن مدير التشريفات :

– السادة مبعوثو سيادة دوق النمسا !

التفت الكردينال نحو الباب بدماثة أخلاق لا توصف ، ودخل زوجاً بعد زوج الثمانية والأربعون سفيراً لمكسمليان النمسا . فيهم القضاة والضباط والمستشارون غارقين في أثواب من المخمل والحرير الدمشقي المطرزة بخيوط الذهب القبرصي ، وكانوا من الفلمنكيين الأصلاء . وقد تميز من بينهم وجه نابه داهية شبيه بوجه القرد ، فحياه الكردينال تحية مضاعفة وانحنى أمامه وهو يدعى غليوم ريم مستشار مدينة غند .

وقلة من الناس تعرف من هو غليوم ريم ، إنه أحد تلك الشخصيات العبقرية التي تحيك المؤامرات مع الملك لويس الحادي عشر المطلعة على أدق أسراره .

حينما كان سفير غند وصاحب النيافة يتبادلان التحيات اقتحم الحاشية رجل طويل القامة عريض الوجه ووقف في مواجهة غليوم ريم ، فكأنه كلب بولدغ أمام ثعلب ، وكانت قبعته المصنوعة من اللباد وسترته الجلدية كالبقعة الوسخة بين كل هذه الثياب المخملية والحريرية المحيطة به ، وحسبه مدير التشريفات سائساً ضل طريقه ، فأوقفه قائلاً : يا صاحبي .. المرور ممنوع !

فهتف به : ماذا تريد مني أيها السخيف ؟ ألا تعرف من أنا ؟ فقال له : ما اسمك ؟

– جاك كوبنول .

– وما مرتبتك ؟

– صانع الجوارب من ماركة السنديانات في مدينة غند !

وتراجع مدير التشريفات دهشة ، لقد قبل أن يعلن عن وصول رئيس بلدية أو مساعده ، أما أن يعلن عن صانع الجوارب !

حيا كوبنول صاحب النيافة وهو هادئ الملامح وظهرت على الكردينال علائم القلق ، واتخذ كل منهما مقعده .

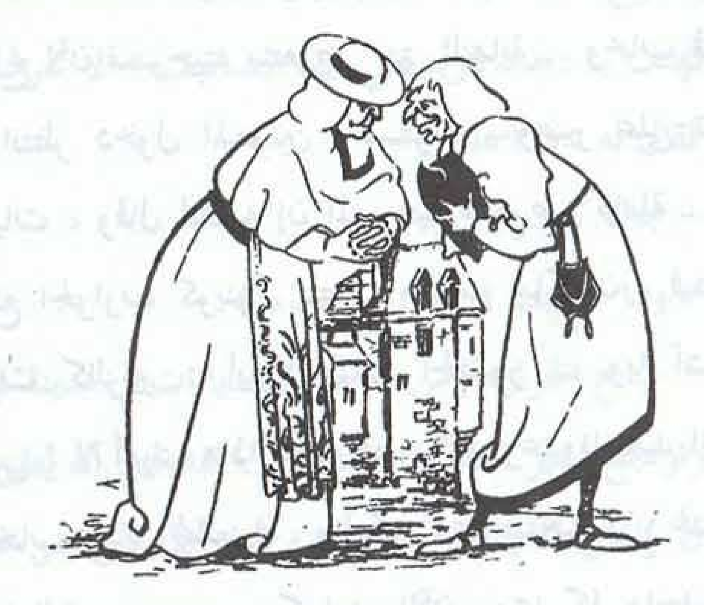
نعود إلى المسرحية ومؤلفها فقد نسيناهما تماماً ، ماذا فعل المؤلف العتيد ؟ لقد تصور استراتيجية تنقذ مسرحيته ، فانضمّ إلى الجمهور وجعل يهتف بصوت مرتفع :

– المسرحية .. استأنفوا المسرحية !

فاستأنف الممثلون حوارهم وجدالهم ، وتنفس غرينغوار بارتياح لأن مسرحيته ستعرض حتى النهاية .. وخاب فأله ! لقد انتظر دخول المبعوثين والسفراء ، وصبر على تبادل التحيات ، وقال لنفسه إن المسرحية ستعرض كاملة ، وإذا بصانع الجوارب كوبنول ينهض والناس ساكتون ، فيصرخ بصوت كالزئير : أيها السادة الحضور .. ويا أشراف باريس ! لا أدري ماذا نفعل هنا ، لقد وعدونا بعيد المجانين وانتخاب (بابا المجانين) ، وإليكم كيف ننتخبه في (غند) : يكون الناس متجمهرين كما هم الآن ، ويمد كل واحد منهم

رأسه من نافذة ، ويبدل ملامحه ساخراً ، فمن يجلب انتباه الناس واستحساهم يُنتخب (بابا المجانين) وأقترح عليهم هذه الطريقة ، فما رأي السادة الأشراف ؟

وقوبل اقتراحه بالتهليل والترحاب ، وكانت معارضته مستحيلة ، بحيث إن الغضب والاستياء قد ألجما المؤلف غرينغوار ، فلم يعد قادراً على الكلام ، وأخفى وجهه بين كفيه .



الفصل الثالث

كازيمودو

أصبح كل شيء جاهزاً بلمح البصر لتنفيذ اقتراح كوبنول ، وقد وقع الاختيار على مُصلى القصر أمام طاولة الرخام ليكون مسرحاً تعرض فيه تكشيرات المتنافسين ، فكُسر زجاج إحدى النوافذ الصغيرة لكي يُطلّ منه المتسابق برأسه ، وكان كوبنول من مقعده يأمر وينهى ويرتب الأمور . وفي غمرة هذا الهياج نهض الكردينال مُحتجاً بموعد الصلاة وانسحب مع حاشيته ، دون أن يثير انصرافُه الضجةَ التي أثارها حضوره ، وأصبح المجال فسيحاً أمام كل أنواع السخافات ، ولم يبق سوى الفلمنكيين والدهماء .

وبدأت مباراة التكشير وتبديل ملامح الوجه من خلال تلك النافذة الصغيرة في المُصلّى ، فكنت ترى أشنع ما يمكن لملامح الوجه الإنساني أن تبلغه من التعابير ومن الصور

الحيوانية ، والجمهور يصرخ ويصرخ وقد أهاجه هذا الكرنفال من الكوابيس .

فجأة سُمعت عاصفة من التصفيق ممتزجة بهتافات مدوية هزت المجلس ، لقد انتُخب (بابا المجانين) ، والجمهور يصرخ من كل جانب : نويل .. نويل .. نويل .

كانت تكشيرةً فظيعة تظهر داخل إطار النافذة ، تكشيرةً أدهشت الحاضرين واكتسحت أصواتهم .



سنحاول أن نعرض للقارئ فكرة تقريبية عن هذا الوجه الذي ظهر في إطار النافذة ، فالأنف مثلث السطوح والفم على شكل حدوة الحصان والعين اليسرى يغطيها حاجب كثيف والعين اليمنى مختفية تماماً تحت تجعدات الجفنين ، وأما الأسنان فهي مشتتة هنا وهناك كأنها سور قلعة قديمة ، والشفتان الدبقتان تنفرجان عن ناب بارز كناب الفيل ، والذقن مشقوق في وسطه . ويخيم على ذلك كله مزيج من المكر والدهشة والكآبة . تصور هذا الوجه إن استطعت .

حين زفّوا من المُصلّى (البابا) الجديد ، بلغ الإعجاب به مداه ، فما حسبوه تكشيرة مصطنعة كان وجهَهُ الحقيقي ، إذ كان شخصُه كله تكشيرةً واحدة ، يضاف إلى هذا حدبةٌ كبيرة تُثقل ظهره وتحنيه إلى الأمام . وأما ساقاه فتلتقيان عند الركبتين وكأنهما قوسان محنيتان تلتقيان عند المقبض ، ويناسب هذا التشويه عزم قوي وإرادة ثابتة وشجاعة عظيمة .

حين أطلّ هذا المشوّه على عتبة المصلّى ثابتاً ضخماً طوله داخل في عرضه ، عرفه الجمهور فوراً وهتفوا بصوت واحد :

– إنه كازيمودو قارع النواقيس .. إنه أحدب نوتردام .. كازيمودو الأعور .. كازيمودو الأعوج الساقين .

أما هو فقد وقف رزيناً هادئاً لكي يتأمله الناس ، وحينما اقترب منه أحد تلاميذ المدارس هازئاً به أمسك به من حزامه دون أن يبذل جهداً ورماه فوق الناس ولم ينطق بكلمة واحدة ، حينئذٍ أُفرغت من حوله حلقةٌ من الرهبة والهيبة مُحيطها خمس عشرة خطوة على الأقل ، وقيل للمعلم كوبنول إن كازديمودو أصمّ . فقال كوبنول :

– أصمّ ؟ لقد اكتمل إذن ، وهل هذا المخلوق أخرس أيضاً ؟

– إنه يتكلم حين يريد ، لقد أصبح أصمّ من أصوات النواقيس ، وهو ليس أخرس .

أثناء ذلك أُلبس كازيمودو طرطوراً من الورق وثوباً فضفاضاً خاصاً بـ (بابا المجانين) ، ثم حمله اثنا عشر ضابطاً من أخوية المجانين فوق محفّة مزينة ، وقد فاض وجهه الكئيب بفرح غامر حينما رأى تحت قدميه المعوجّين رؤوس هؤلاء الرجال الأشداء المكتملي البنيان ، ومضى الموكب الهائج في جولة داخل ردهات القصر ، ثم خرج يطوف الشوارع .

وفجأة صرخ بعض المُجّان :

– الاسميرالدة .. الإسميرالدة !

وكان لهذا الاسم تأثير السحر ، واندفع كل من بقي في القاعة إلى النوافذ وتسلقوا الجدران ليتفرجوا وهم يهتفون :

– الإسميرالدة .. الإسميرالدة !

على حين ارتفعت من الساحة عاصفة من التصفيق ، وزمجر غرينغوار :

– ما هذه الإسميرالدة ؟

الفصل الرابع

العنـزة ذات القدمين الذهبيتين

حينما وصل بيير غرينغوار إلى ساحة كريف أحس بروعة ما يحدث ، فقد رأى ناراً احتفالية هائلة تشتعل وسط الساحة ويحيط بها جمهور غفير من الناس ، وضمن المساحة الخالية بين الجمهور والنار كانت ترقص فتاة ، ولم يدر غرينغوار كيف يصف جمالها ، أهي من البشر أم من الجن ، أم هي مخلوق سماوي لا يعرف له اسماً .

لم تكن فارعة الطول ولكنها هيفاء ممشوقة القوام ، وكانت سمراء سُمرةً ذهبيةً عُرفت بها فتيات الأندلس ، وتنقل قدمين رشيقتين لا تكادان تمسان الأرض إلا مساً رفيقاً ، وترقص على قرع الطبلة كالفراشة فوق بساط عجمي عتيق ، وقد أحاطت بها الأنظار وفغرت الأفواه دهشةً ، فكأنها ليست من مخلوقات هذه الأرض وإنما حورية هربت

من بساتين النعيم ، وقد انسدلت إحدى جدائلها الكثيفة على كتفها بعد أن تفلتت من حبكة النحاس التي تمسك بها وتدحرجت إلى الأرض ، فعرف غرينغوار أنها إحدى الغجريات ، وزالت عنه أوهامه .

تابعت الغجرية رقصها على أضواء النار الحمراء التي تنعكس على الوجوه المحيطة بها فتزيد من الإحساس بالتهاب عواطفهم .

بين هذه الآلاف من الوجوه كان وجه واحد قد استغرق في تأمل هذه الراقصة ، إنه وجه رجل شديد الملامح لم يتجاوز الخامسة والثلاثين ، ولكنه أصلع الرأس وما بقي من شعره قد شاب ، عريض الجبين قد بدأت التجاعيد تغزوه ، ولكن عينيه تلمعان لمعاناً شرساً ، ولم يرفعهما عن هذه الغجرية ابنة السادسة عشرة التي تكاد تطير والجمهور مستمتع برقصها ، وحين أنهكها الرقص توقفت وصفق لها الجمهور إعجاباً ، فنادت الغجرية :

– جالي !

حينئذ رأى غرينغوار عنــزة صغيرة بيضاء تثغو متوفزة ، يلتمع قرناها المذهّبان وقدماها المذهبتان والعقد الذهبي في رقبتها . وقالت الراقصة :

– جالي .. جاء دورك الآن .

وجلست أمام العنــزة وأمسكت الطبلة أمامها ، وسألتها :

– جالي .. في أي شهر نحن الآن ؟

فرفعت العنــزة قدمها وضربت على الطبلة مرة واحدة ، وكان فعلاً الشهر الأول ، وصفق الجمهور لها ، ثم قالت الفتاة :

– في أي يوم من الشهر نحن الآن ؟

فرفعت العنــزة قدمها الصغيرة المذهبة وضربت على الطبلة ست ضربات ، وسألتها الغجرية :

– كم الساعة الآن ؟

فضربت سبع ضربات . وفي تلك اللحظة قرعت ساعة الساحة سبع مرات ، وذهل الناس ، وهتف صوت كئيب من الحاضرين :

– هذا سحر .. لا بد أنه السحر .

كان صوت ذلك الرجل الأصلع ، وارتعدت الغجرية ، لكن تصفيق المتفرجين طغى على صوته ، فخاطبته الغجرية :

– كيف يفعل رئيس الحرس ؟

فوقفت جالي على قدميها الخلفيتين وبدأت تثغو وتمشي مشية منتظمة حتى انفجر المتفرجون بالضحك لرؤية هذا التقليد الساخر لرئيس الحرس ، وشجع هذا النجاح الغجرية على طلب المزيد من العنــزة ، فقالت :

– جالي .. كيف يخطب القس جاك شار مولي أمام الملك ؟

فوقفت العنـــزة على قدميها الخلفيتين وبدأت تثغو وتحرك يديها بطرقة عجيبة وكأنها تقلد أخطاءه اللغوية وطريقته في الإلقاء . صفق الجمهور طويلاً .

وعاد الصوت إلى الصراخ عالياً :

– كفر وسحر .. وتدنيس للمقدسات .

فقالت الغجرية :

– آه .. هذا الرجل الشنيع !

ثم شدت قامتها وأمسكت الطبلة ودارت عدة دورات على عقب قدمها ، وبدأت تجمع من الناس الصدقات ، وانهمرت عليها قطع النقود من نحاسية وفضية ، وفجأة وقفتْ أمام غرينغوار فوضع يده بسرعة في جيبه وقال وهو يواجه الحقيقة ، أي الفراغ : يا رب !

والفتاة الحسناء واقفة أمامه تمد يدها بطبلتها ، والعرق يتصبب من جبهة غرينغوار ، وأحس كأن الدوار يعصف برأسه ، وتخيل نفسه في مكان بعيد مختلف تماماً ، ولم ينتزعه

من عالم خيالاته سوى غناء عجيب متناسق الألحان ، إنه صوت الغجرية يصدح ، فلم يدر هل يعجب بحسنها أم برقصها أم بغنائها ، كانت مكتملة الصفات ، وأحس غرينغوار بالدموع تنسكب من عينيه .

الآن ظهر موكب (بابا المجانين) بعد أن تجول في الأزقة والحارات ووصل إلى ساحة كريف بكل مشاعله وأصواته ، وقد عرف القارئ كيف تمّ انتخاب هذا البابا في قصر العدل ، وانضم إلى هذا الموكب في مسيرته كل ما يمكن أن تحويه باريس من متشردين ومتسكعين ومشوهين وعاجزين ولصوص من قاع المجتمع .

كان في طليعة الموكب ملك الغجر راكباً حصاناً ترافقه حاشيته ماشية حوله ، وقد أمسك بالرسن كأنه من كبار المحاربين ، ثم تبعته مملكة الرعاع ، أي ما تحويه فرنسا من لصوص وقطاع الطرق ، وقد انتظموا صفوفاً أربعةً أربعةً ، الأقل مالاً والأشد فساداً في الطليعة ، ثم يتلوهم الآخرون

على مراتبهم ، فترى الشحاذين ولصوص الأسواق والعميان العاجزين والمشردين من اليتامى .

وسط هذا الجمهور ترى الضباط الكبار لأخوية المجانين يحملون على أكتافهم محفّة مزينة بالشموع الموقدة ، وقد جلس فوقها (بابا المجانين) الجديد قارع النواقيس في كنيسة نوتردام كازيمودو الأحدب وهو في أبهى زينة .

لا يمكننا أن نصف اعتزاز كازيمودو والفرحة التي ارتسمت على وجهه المشوه الكئيب أثناء رحلته من قصر العدل إلى ساحة كريف ، إذ كانت هذه أول مرة يهتم به أحد أو ينتبه إلى وجوده ، فلم يلق سوى الإهانة والتقزز وأبشع الصفات التي يوصف بها إنسان ، وعلى الرغم من أنه أصمّ فقد كان يستمتع بهتافات هذا الجمهور الذي يرفعه على الأعناق كأنه بابا حقيقي ، وإن كان هذا الجمهور حثالة من المجانين والمعتوهين والمتسولين فلا يهتم لذلك .. إنها رعيته وهو الحاكم عليها ، وكان يحمل على محمل الجد كل هذه

الهتافات الهازئة به ، وكل آيات الاحترام الساخرة منه يبديها الجمهور نحوه ممزوجة بشيء من الرهبة ، فقد كان الأحدب قوياً ، وكان معوجّ الساقين سريع الحركة ، وكان الأصمّ شريراً ، وهذه الصفات الثلاثة يخشاها الحمقى ، لذلك فوجئ الناس حين مر الموكب أمام بيت الأعمدة برؤية رجل اندفع من بين الجمهور وانتزع بحركة غاضبة من يد كازيمودو صليبه المذهب علامة سلطته البابوية . لم يكن ذلك الرجل سوى الأصلع الذي كان يصرخ بالغجرية ساخطاً عليها ويتهمها بالسحر والكفر ، وحين مر بجانب غرينغوار هتف هذا مذهولاً :

– إنه كلود فرولو رئيس الأساقفة ، ماذا يريد من هذا الأعور ؟ سيفتك به .

وارتفعت صرخة رعب ونزل كازيمودو عن المحفة ، فأدارت النساء بصرهن لئلا يشهدن مصرع رئيس الأساقفة ، وقفز حتى وقف أمامه ، ورفع بصره إليه ثم خرّ راكعاً ،

فانتزع القس طرطوره وثوبه وكسر له صليبه المصطنع ، وظل كازيمودو راكعاً وقد أطرق برأسه وشبك أصابع يديه ، ثم جرى بينهما حوار من الإشارات والحركات ولم يتبادلا الكلام ، القس يهدده بسلطة عظيمة والأحدب خانع ذليل بين يديه . وإن كان كازيمودو يستطيع هرس القس بإصبع واحدة .

وأخيراً هزّ القس كتف كازيمودو القوية وأشار إليه أن ينهض ويتبعه ، ونهض كازيمودو .

بعد أن زالت الدهشة عن أخوية المجانين ، حاولوا الدفاع عن البابا الذي أزيح عن عرشه فجأة ، فاندفع الغجر واللصوص والرعاع إلى القس ، فوقف كازيمودو أمامه يمنعهم عنه ، ولوّح بذراعيه الضخمتين في وجوههم وكشر عن أنيابه كالنمر الغاضب .

عاد القس إلى هدوئه ووقاره ، فأشار إلى كازيمودو ، وانسحبا بصمت ، وكازيمودو يشق له طريقه بين الجمهور .

وبعد أن اجتازا الرعاع في الساحة تبعتهما جماعة من أهل الفضول ، فمشى وراءه مواجهاً الجمهور وقد ظهرت عليه علامات الغضب وهو يتلمظ كأنه خنـــزير برّي ، مزمجراً كالوحش الكاسر ، مبعداً الناس يميناً وشمالاً . حتى دخلا درباً ضيقاً معتماً لم يجرؤ أحد على ملاحقتهما فيه ، فقال غرينغوار :

– هذا رائع ، ولكن أين يمكنني العشاء ؟

الفصل الخامس

مخاطر التجوال ليلاً

تبع الشاعر غرينغوار الغجرية دون تفكير ورآها تسلك مع عنــزتها شارع كوتلوي ، فدخله ومشى وراءها فكانت تسرع الخطا وتحث عنــزتها على الهرولة ، إذ خلا الشارع من المارة وأغلقت الحوانيت ، وفكر الشاعر : " لا بد أنها تقيم في مكان ما ، فالغجريات طيبات القلب " . وازدادت الطرقات إظلاماً وخلت من الناس ، فقد أعلن حظر التجول منذ زمن طويل ولم تعد ترى سوى شخص مسرع أو نور مضاء في النوافذ . ومازال غرينغوار يمشي وراءها في الدروب الضيقة والممرات المعتمة ، وقد لفت إليه انتباه الفتاة ، فكانت تتلفت خائفة ، واستغلت النور الصادر عن أحد المخابز لتقف وتتأمله من رأسه إلى قدميه ، ثم تفتل شفتيها باشمئزاز .

بدأ غرينغوار يضائل شخصه ويتبعها عن بعد حتى اختفت في أحد المنعطفات ، فسمع صرخة شقت السكون فأسرع الخطا ، كان الطريق غارقاً في الظلمة ، ولكن قطعة كتان مغمسة بالزيت كانت تحترق داخل برميل تحت قدمي تمثال العذراء ، أتاحتْ له أن يرى الغجرية وهي تتلوى بين أيدي رجلين يحاولان إسكات صرخاتها ، وأما العنــزة الصغيرة فقد فزعت لهذا المشهد ، فخفضت قرنيها ورفعت صوتها بالثغاء ، وصرخ غرينغوار وهو يندفع باستبسال :

- إليّ أيها الجبناء !

والتفت إليه أحد الرجلين فإذا هو كازيمودو ، فلم يهرب غرينغوار ولكنه لم يتقدم خطوة أيضاً . وجاء إليه كازيمودو وصفعه صفعة رمته على بعد أربع خطوات فوق الرصيف وولى هارباً وقد حمل الفتاة على ذراعه كما يُحمل منديل من حرير . ولحق به صاحبه ووراءهما العنــزة تجري وهي تثغو شاكية ، وصرخت الغجرية : القاتل .. القاتل !



فارتفع فجأة صوت كالرعد يقول :

– قف أيها النذل .. واترك الفتاة !

واندفع فارس من تقاطع الطرق ، كان ضابطاً من فرقة الحرس الملكي يهزّ سيفه ، وانتزع الغجرية من يدي كازيمودو وألقاها على حصانه ، وحين أفاق الأحدب من دهشته هجم عليه ليسترد فريسته ، فاعترض طريقه خمسة عشر جندياً كانوا يرافقون الضابط ، وقد سلوا سيوفهم فأحاطوا به وقيدوه ، فكان يصرخ ويرغو الزبد من فمه ويعض ، ولو كان الوقت نهاراً ورأوا وجهه الذي زاد الغضبُ من قبحه

لهربت الفرقة ، ولكن الليل جرّده من أقوى أسلحته ألا هو بشاعته ، وهرب صاحبه أثناء الشجار .

اعتدلت الغجرية فوق الحصان ونظرت في عيني الفارس وسألته :

– ما اسمك يا سيدي الفارس ؟

– الضابط فوبوس في خدمتك يا حسناء .

وجعل يفتل شاربيه وقد شمخ بأنفه كبرياء .

– شكراً لك يا سيدي .

وانزلقت عن سرج الحصان وهربت . أما غرينغوار الذي حطمته السقطة فقد ظل مرمياً ، وأحس بجانبه الذي يلامس الأرض بارداً ، فعادت إليه ذاكرته وقال فجأة :

– من أين تأتي هذه الرطوبة ؟

فوجد نفسه وسط ساقية ، وحاول أن ينهض فلم يقدر على الحركة ، فزمجر من بين أسنانه :

– أيها الأحدب اللعين !

ولبث في مكانه وجعل يستعيد المشهد الذي حدث أمامه . فتذكر أن الغجرية كانت تدافع عن نفسها بين رجلين ، أحدهما كازيمودو ، وثانيهما رئيس الأساقفة الذي أشيع عنه أنه قد باع روحه للشيطان ، فلماذا يطارد زملاءه من السحرة ؟ فهل تحول هذا المنافق عن طريقه الأول ؟ ومازال محلقاً في تأملاته الفلسفية حتى أعادته إلى الأرض برودة الواقع فهتف :

– آه .. إني أتجمد .

ولكن برزت أمامه مشكلة أخرى ، فقد جرت نحوه جماعة من الأولاد المشردين العراة شبه المتوحشين وهم يصرخون بأعلى أصواتهم . ويسحبون وراءهم كيساً مملوءاً بشيء ما وينادون :

– أوستاش موبون ، الحداد الملعون ، أخذه إليه إبليسه فلنحرق كيسه .

ورموا الحصير فوق غرينغوار الذي كان غافلاً عنهم ، ثم أخذ أحدهم قبضة من التبن وأشعلها بالنار المتوقدة تحت السيدة العذراء وأحرق بها الحصير .

وقع غرينغوار بين النار والماء ، فبذل جهداً جباراً لينهض ويرمي الحصير على الأولاد ويهرب ، وهتف الأولاد :

– يا سيدتنا العذراء ، هاهو الحداد قد جاء . وتفرقوا في كل مكان .

الفصل السادس

الجرة المكسورة

بعد أن ركض غرينغوار مدة من الزمن دون أن يعرف أين تسوقه قدماه ، حاول أن يتوجه إلى ناحية معينة ، فلم يجد في طريقه سوى مجموعة من البيوت لا منافذ لها غارقة في الأوحال وكأنما هي كوابيس متتابعة ، ولمح فجأة نوراً محمر الوهج ، فانعطف إلى شارع طويل منحدر لا رصيف له ، في نهايته هذا النور يدعوه إليه كأنه منارة ميناء ، ولاحظ أنه لم يكن وحده المتوجه إليه ، فقد كانت ترافقه أشباح أشخاص يجرّون خطاهم أو يزحفون .

ولم يكن شاعرنا يخاف على محفظة نقوده فتابع طريقه مع هذه اليرقات التي تحيط به وتسعى معه ، وكلما أوغل فيه تزايد من حوله عدد العور والعميان والبُرص يفأفئون ويحشرجون ، ووجهتهم ذلك النور ، مثلما تخرج البزّاقات

بعد المطر ، وخطر له أن يعود أدراجه ، ولكن فات الأوان ، فقد أغلق هذا الموكبُ الرهيب طريقَ العودة وراءه وأحاط به من كل جانب ، ووصل أخيراً إلى نهاية الطريق ، فإذا هو يفضي إلى ساحة واسعة تخترق ضبابَه آلاف الأضواء ، فدخلها .. إنها (ساحة الأعاجيب) التي لا يدخلها رجل محترم في مثل هذه الساعة من الليل ، وقد تجمع فيها كل المتسولين والمتظاهرين بالعجز والمتعامين وكل الذين صبغوا أجسادهم بدمامل لا بُرء منها ، وكل اللصوص وقطاع الطرق والقتلة من كافة الأصناف والأجناس ، كل هؤلاء تجمعوا في حفرة القاذورات هذه .. والساحة الواسعة محاطة بالأضواء غاصة بالكائنات الغريبة التي تتحرك هنا وهناك .

كان خوف غرينغوار يتزايد شيئاً فشيئاً . وسمع فجأةً صوتاً يرتفع من وسط الضجيج صارخاً :

– خذوه إلى الملك .. خذوه إلى الملك !

وقبضوا عليه واجتازوا به الساحة ، وتوقف حرسه ذوو الأسمال أمام نار مشتعلة على مصطبة مرتفعة وقد نصب فوقها برميل وجلس فوقه شحاذ ، وسأله من فوق عرشه :

– من هذا الحقير ؟

وفأفأ غرينغوار :

– يا معلم .. يا سيدي .. كيف يجب أن أدعوك ؟

– نادني يا مولاي .. أو يا صاحب الجلالة .. أو أيها الرفيق ، أو كما تشاء ، ولكن بسرعة .. ما اسمك يا حقير ؟ إنك الآن أمام ثلاثة ملوك : أنا وملك تاونس وماتياس سبيكالي ملك مصر وبوهيميا ، ونحن قضاتك ، لقد تسللت إلى مملكة الحرافيش دون أن تكون حرفوشاً ، واخترقت حدود مدينتنا ، وينبغي أن تنال جزاءك ، إلا إذا كنت سارقاً أو شحاذاً أو متشرداً ، فهل أنت واحد من هؤلاء ؟ قال غرينغوار :

– وا أسفاه ! لم أحصل على هذا الشرف .. لأنني كاتب ..

فقاطعه :

– كفى .. ستشنق !

فقال غرينغوار بصوت هادئ دهش له هو نفسه :

– يا حضرات الأباطرة ، ويا أصحاب الجلالة .. اسمي بيير غرانغوار ، وأنا الشاعر الذي مُثّلت له هذا الصباح مسرحية أخلاقية في قاعة القصر الكبرى . فقال كلوبان :

– هذا أنت يا أستاذ ؟ لقد شاهدتها .. وهل تعتقد أنك إن أسأمتنا صباحاً ، فلن تشنق في المساء ؟

طلب منهم غرينغوار أن ينتسب إلى جماعتهم . فتداول الملوك الثلاثة فيما بينهم ، وقرروا أن يجتاز امتحان القبول ، إذ ينبغي للمترشح لمملكة الحرافيش أن يفتش جيوب تمثال معلقة عليه الأجراس دون أن يحركها ويرتفع رنينها . وقال لهم ناظم القوافي إنه جاهز لخوض الامتحان ، فأحضر التمثال

وقد عُلّق على مشنقة ، وحين توقف عن الحركة أشار الملك إلى سلم قصير مكسور الدرجات لا يكاد يتوازن ، وأمره أن يصعده ، ثم شرح له ما يجب عمله :

– ستقف على رؤوس أصابع قدمك اليسرى وتدور باليمنى حول التمثال ، وتستل محفظته من جيبه ، فإذا فعلت هذا كله دون أن نسمع صوت الأجراس أصبحت واحداً منا ، ثم ننهال عليك ضرباً تسعة أيام .

– وإذا تحركت الأجراس ؟

– تشنق .. وإذا سمعنا أقل حركة تأخذ مكان التمثال .. هيا .. أسرع !

لم يكن غرينغوار يأمل في الحصول على إعادة المحاكمة أو تأجيلها ، فوقف على السلم وأدار رجله اليمنى على رجله اليسرى ، ومد ذراعه ليمسك بالتمثال ، فتزعزع السلم ، وحاول أن يتمسك بشيء ما لئلا يهوي فلم يستطع وسقط على الأرض وقد رنت الأجراس كلها معاً . فأمره الملك :

– انهض أيها الغبي .. اشنقوه فوراً !

ووضعت الأنشوطة حول عنقه ، وقبل أن يصفق الملك إعلاناً عن بدء التنفيذ ، قال :

– لحظة ! لقد نسيت أنه من تقاليدنا قبل شنق الرجل أن نسأل عما إذا كانت هناك امرأة تريده . وهتف الإمبراطور :

– هل هناك امرأة تريده ؟ .. اشنقوه !

ولكنّ صرخة ارتفعت من بين الحرافيش :

– الإسميرالدة .. الإسميرالدة !

وأفسحوا لها ممراً بينهم .. إنها الغجرية .

والظاهر أن لجمالها تأثيراً خاصاً في محكمة العجائب ، وسألت الإمبراطور بصوت هادئ :

– هل ستشنق هذا الرجل ؟

– طبعا .. يا أختي . إلا إذا اتخذته زوجاً لك .

فحركت شفتيها كما اعتادت وقالت :

– أتخذه زوجاً لي .

حتى الآن كان يظن غرينغوار نفسه فريسة حلم عجيب ، وفكوا الأنشوطة من عنقه وأنزلوه عن السلم وأجبروه على الجلوس ، وحمل ملك مصر جرة من الفخار دون أن ينطق بكلمة وقدمها إلى غرينغوار .



فقالت له :

– ارمها على الأرض .

فرماها ، وتقدم ملك مصر يتفحصها فوجد أربع قطع ، فقال له :

– يا أخي إنها زوجتك الآن .. يا أختي إنه زوجك الآن ، لقد تم تزويجكما لمدة أربع سنوات .. انصرفا .

الفصل السابع

المطعم والمأوى

حين وجد الشاعر نفسه داخل غرفة مقوسة السقف محكمة الإغلاق دافئة ، وأمامه طاولة عامرة بما لذّ وطاب من المآكل ، ومعه هذه الفتاة الجميلة ، حسب نفسه بطل إحدى الحكايات الخرافية ، أما هي فلم تعره اهتماماً ، فكانت تروح في الغرفة وتجيء وهي تكلم عنـــزتها ، فسألها بعد دقائق :

– لماذا اتخذتني لك زوجاً ؟

فأجابته ببساطة :

– وهل أدعهم يشنقونك ؟

فانزعج لجوابها وقال :

– لم يكن هدفك سوى إنقاذي من الإعدام .

– وأي هدف آخر تظنه يدفعني إلى ذلك ؟ إن دافعي الوحيد هو طيبة قلبي لا حبّي لك ..

فقال :

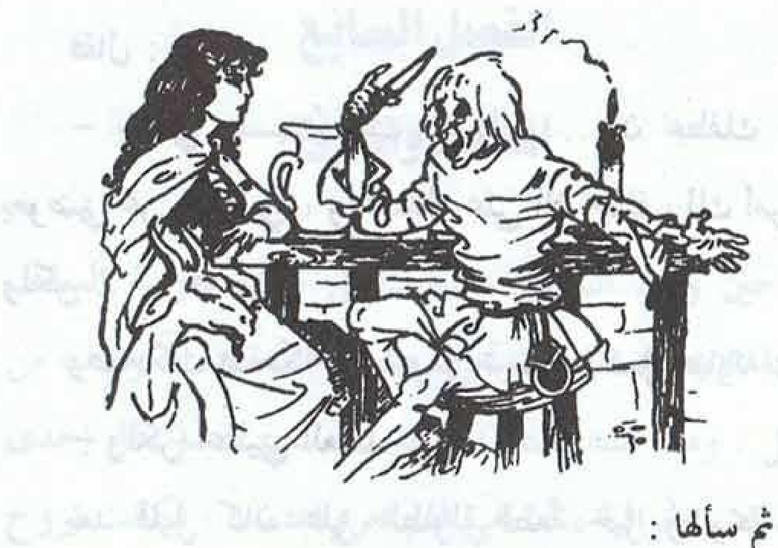
– ولكني حسبتُ أنك .. المهم .. أن عطفك عليّ يعوضني عن حبك لي ، وأعاهدك على ألا أخالف لك أمراً .. ولكن ..

وضحكت ضحكة عالية وهي تسمعه يكمل عبارته :

– ولكن أعطيني العشاء .

بعد قليل كان على الطاولة قطعة خبز وشريحة لحم وتفاحة ذابلة ، فبدأ غرينغوار يأكل بشراهة .

جلست الفتاة أمامه تنظر إليه ساكنة وقد انشغلت بفكرة أخرى ، كانت تدفع الابتسامة إلى شفتيها من حين إلى آخر وهي تمسّد رأس عنـــزتها الذكية التي التصقت بها ، وكان يضيء هذا المشهد من النهم والحلم شمعدان فيه شموع صفراء ، وساءل غرينغوار نفسه بعد أن ملأ معدته : بماذا .. أو بمن تفكر ؟



ثم سألها :

– ماذا تريديني أن أفعل لأرضيك ؟

– يجب أن تكون رجلاً .

– فماذا ترين أمامك إذن ؟

– أريدك أن تكون رجلاً يلبس خوذة في رأسه ويمسك سيفاً بيده ، ومهمازين من ذهب في عقبيه ، فقال غرينغوار :

– كيف أكون رجلاً وليس لدّي حصان ؟

– لا أمنح حبي لرجل لا يستطيع حمايتي . فاحمرّ غرينغوار إذ أنها تشير إلى الحادثة التي جرت قبل ساعتين ، وسألها :

– وكيف استطعت التخلص من براثن كازيمودو ؟

فارتعدت الفتاة :

– ذلك الأحدب المخيف ؟

– كيف أفلتّ من يديه ؟

فابتسمت الإسميرالدة وظلت ساكتة .

وسألها :

– هل تعرفين سبب ملاحقته لك ؟

– لا أدري .. ولكن لماذا كنت تلاحقني أنت ؟

– الحق أقول لك ، إني لا أدري .

وقص عليها تفاصيل حياته المضطربة وكيف عاش طفولة بائسة في شوارع باريس ، وحين بلغ سن الشباب ابتسم له الحظ فصادف كلود فرولو رئيس أساقفة نوتردام ،

وبمساعدته تعلم اللاتينية والفلسفة ، وكان يبدو على الفتاة أنها تصغي إليه ولكنها قاطعته فجأة :

– فوبوس .. ما معنى هذه الكلمة ؟

– هذه كلمة لاتينية معناها الشمس .

ورددت كلمة " الشمس " وقد أشرق وجهها بابتسامة عريضة ، ثم سألها غرينغوار عن معنى اسمها ، فقالت له إنه كلمة غجرية ولا تعرف أكثر من ذلك ، وسألها :

– هذا الرجل الذي زوَّجنا وتدعونه ملك مصر .. هل هو زعيم القبيلة ؟

– نعم .

– كم كان عمرك حين جئت إلى فرنسا ؟

– صغيرة جداً .

– وإلى باريس ؟

– السنة الماضية .

– وهل لك أهل ؟

فلم تجبه ، ولكن غرينغوار يحترق شوقاً لسؤالها :

– هذا المساء حينما هاجمك كازيمودو ، ألم تلاحظي معه شخصاً آخر قد هرب حين جاء الحرس ؟

فارتعدت الإسميرالدة وقالت :

– أظن ذلك ..

– ألم تعرفيه ؟

– أظنني عرفته .

– ألا يشبه كلود فرولو رئيس الأساقفة الذي حدثتك عنه ؟

وازداد خوفها وهي تقول :

– ربما .. وإني متأكدة أنه يكرهني ويظنني ساحرة ، آه .. أفضل أن أقابل الشيطان ولا أقع في يده .

بعد فترة من الصمت سمعها تتمتم : " فوبوس "

فقال لنفسه : لا ريب أنها تردد تعويذة سحرية .

وعادت إلى أحلامها ، ووجد أنه لن يعرف المزيد عن هذه المخلوقة الغريبة ، ففضل الانصراف إلى النوم ، وأما هي فلم تتمن له ليله سعيدة ودخلت الغرفة مع عنـزتها وأحكمت إغلاقها . قال الفيلسوف :

– هل تركتْ لي سريراً ؟

وفتش الحجرة فلم يجد سوى صندوق طويل من الخشب غطاؤه محفورة عليه النقوش .

الفصل الثامن

نوتردام

منذ ست عشرة سنة على هذه الأحداث جاءت امرأة مجهولة إلى كنيسة نوتردام يوم الأحد ، ووضعت بيدها اليسرى طفلاً صغيراً على غطاء الصندوق الخشبي المنقوش ، وهذا الصندوق مخصص للأطفال اللقطاء لكي يتبناهم من يشاء ، وكان المخلوق الذي وضعته المرأة على الصندوق سنة 1467 عجيب الخلقة قد تجمعت حوله حلقة من الناس يتفرجون عليه ، وكأنما أخافته نظراتهم فارتفع صوته بالبكاء ، وأخرج رأسه من الكيس الملتف به ، ولم يكن رضيعاً وإنما قدّر عمره حينئذ بأربع سنوات ، ولا تستطيع أن تتخيل مخلوقاً أكثر بشاعة منه ، فليس له سوى عين واحدة والأخرى مغطاة بجفنيه ، وأما فمه وأسنانه فكانت بارزة مستعدة للنهش ، وغابة من الشعر تغطي رأس هذا الساحر

كما سمعته النساء اللواتي رأينه ، وحسبنه ينظر إليهن بعين شيطان ، واقترحن أن يرمى إلى النار . حينئذٍ تقدم قس شاب فأبعد الحلقة من النساء المتجمعات حوله ونظر إلى هذا " الساحر " الصغير ، ووضع يده فوقه وقال :

– سأتبنّى هذا الصغير .

وحمله داخل ملابسه الكهنوتية ومضى ، وما إن أفقن من دهشتهن حتى مالت إحداهن على أذن جارتها وقالت لها :

– لقد قلت لك دائماً إن هذا القس الشاب كلود فرولو يمارس السحر ، ولم يكن فرولو شخصية متبذلة ، فقد وهبه والده إلى الكنيسة ، فصرف اهتمامه إلى الدراسة الجادة وكأنما أصابته حمى العلم ، وأمضى أربع سنوات في الجامعة ، ولا هدف له في الحياة سوى : المعرفة ، لكن الطاعون الأكبر الذي اجتاح البلاد سنة **1466** أودى بحياة أمه وأبيه في يوم واحد ولم يترك له سوى أخيه الرضيع ، فانصرف عن حياة الفكر إلى العطف على أخيه ورعايته والاهتمام به ، ولفتت

انتباهه يوم الأحد هذه الحلقة من النساء اللواتي أحطن بالطفل اللقيط ، وتخيل أن مصير أخيه قد يكون مثله لولا أنه يعيله ، فعطف عليه وتبناه ، وأطلق عليه اسم كازيمودو أي " الناقص " لأنه كان أعور أحدب معوجّ الساقين .

في سنة **1482** كان كازيمودو قد كبُر ، وعُيّن منذ سنوات قارعاً لنواقيس كنيسة نوتردام بمساعي أبيه بالتبني كلود فرولو الذي وصل إلى منصب رئيس الأساقفة ، وبمرور الزمن جمعت علاقة وثيقة بين قارع النواقيس وبين الكنيسة ، إذ كانت نوتردام المهد الذي فيه تربّى ، فهي عشّه وبيته ووطنه والكون كله . وحينما تعلق لأول مرة بحبال النواقيس وارتفعت أصواتها كان هذا بالنسبة إلى كلود أولى الكلمات التي نطق بها كازيمودو ، ولكن المصائب لا تأتي فرادى ، ولم يكفه أن يكونَ أعور أحدب ، إذ فقد سمعه من قرع النواقيس ، ونتج عن صممه صعوبة في النطق ، ولئلا يسخر منه الناس عزم على ألا يتكلم إلا إذا كان وحيداً ، ولذلك

انعقد لسانه ، فإن تحدث إلى الناس لم يُفصح ولم يفهموا ما يقول ، يضاف إلى هذا حبه للشر ، فقد غدا شريراً لأنه متوحد ، وكان متوحداً لأنه قبيح الخلقة ، وابتعد عن الناس ، فلم تعد الكاتدرائية مجتمعه فحسب بل الطبيعة كلها بألواح نوافذها المزينة برسوم الأزهار والنباتات والعصافير ، وقمم أبراجها التي يصعد إليها دون أن يحس بالدوار ، فيتأمل باريس وكأنها بحر هائج تحت قدميه ، لقد كان أحب شيء إلى قلبه في هذا الصرح الأليف نواقيسه الخمسة عشر ، على الرغم من إصابته بالصمم ، وكان أحبها إليه الناقوس الكبير الذي يعتبره امرأة يدعوها ماري إلى جانبها أختها جاكلين ، وأما من بين البشر فكان يخلص حبه لشخص واحد ، ولعله يفضله على الكاتدرائية ، إنه كلود فرولو ، وذلك لسبب بسيط ، إذ أن كلود فرولو هو الذي كفله وأطعمه ورباه ، وكان يلجأ إليه حينما يهاجمه الأطفال وتنبحه الكلاب وتجري وراءه ، وهو الذي علمه القراءة والكتابة ودرّبه على قرع

النواقيس . وهكذا ظل كازيمودو على اتصال بكائنين في هذا العالم : كنيسة نوتردام والقس كلود فرولو .

سنة **1482** ، كان عمر كازيمودو حوالي العشرين ، وكلود فرولو حوالي السادسة والثلاثين . الأول ينمو ويترعرع والآخر يشيخ ويفقد قواه ، ولم يعد كلود فرولو ذلك التلميذ البسيط في معهد (تورشي) والمدافع الساذج عن طفل صغير ، لقد غدا قساً صارماً وقوراً كئيباً مسؤولاً عن أرواح الناس ، وأول نائب للمطران ، وشخصية هامة تشيع الجزع من حولها ، ولكنه لم يتخل في مسيرة حياته عن أمرين : العلم وتربية أخيه الصغير ، وقد خاب رجاؤه في أخيه يوهان فرولو الذي لم يتبع الطريق الذي رسمه له ، إذ أمّل أن يراه تلميذاً تقياً وديعاً مثابراً حسن السيرة ، ولكن تبين له أن يوهان شيطان رجيم يحب الفوضى ومعاشرة الرعاع ، وكم كان يلقي عليه الخطب الطويلة والمواعظ البليغة فيبدو على يوهان أنه متأثر بها ، ويُظهر ميله إلى

التوبة ، ولكن ما إن تنتهي تلك الخطبة أو الموعظة حتى يعود إلى ما كان عليه من الفوضى والفساد .

وحين بلغ السادسة عشرة أعلن كلود عجزه عن تقويم أخيه الذي لا طاقة له بمقاومة الشر ، ولكي يدفن أحزانه وخيبة آماله انصرف كلود إلى كتب العلوم ينهل من معينها ، فأصبح قساً متعصباً ورجلاً شديد الكآبة ، ويقال إنه كان يتردد على المجتمعات السرية بكل أنواعها ، وخاصة تلك التي تشتغل بالسحر والعلوم المستورة ، ولعله جازف بفقدان روحه لديها . والثابت أن لرئيس الأساقفة حُجرة صغيرة قائمة بين البُرجين المطلين على ساحة كريف من كنيسة نوتردام يحظر على أي إنسان دخولها ، ولا يمكن التأكيد على أنه يمارس السحر ، ولكن لا دخان بلا نار كما يقال ، إذ كانت لرئيس الأساقفة سمعة شائعة في هذا الميدان . والعجيب أنه أكبر أعداء العلوم السرية المتعلقة بالسحر بنوعيه : الضار والنافع ، فهل كان هذا ستاراً يختفي وراءه لكي يلفت

الأنظار عن حقيقة أمره ؟ ومع مرور السنين أصبح قاسياً على نفسه وعلى الآخرين لا يتسامح مع أي كائن له صلة بالسحر من قريب أو بعيد وهو العدو الأكبر للغجر حيثما وجدوا .

وقد استطاع كلود فرولو أن يستصدر من الأُسقف قراراً بمنعهم من ممارسة طقوسهم ، واستعراض فنونهم من رقص وغناء في الساحات العامة ، كما استطاع أن يستصدر أمراً آخر بإحراقهم إذا ثبت عليهم ممارسة السحر .

الفصل التاسع

كازيمودو أمام القضاة

من صباح اليوم التالي على الاحتفال بانتخاب (بابا المجانين) اجتمع جمهور غفير من الناس في قاعة (غوان شاتليه) ليشهدوا المحاكمة التي يترأسها القاضي فلوريان بابرديق ، وكان في الصف الأول من الحاضرين يوهان فرولو ، وهو التلميذ الذي تراه في كل مكان من باريس يصفق أو يهتف أو يمازح أصحابه أثناء انتخاب (بابا المجانين) ، فلكز صاحبه بمرفقه وقال له :

– من سيحاكمون الآن ؟ ها قد جاء الجنود .

ثم وقف على رؤوس أصابع قدميه ليرى جيداً ، وقال :

– آه .. ما أجمل هذه المحاكمة .. إنه (بابا المجانين) الذي انتخب بالأمس قارع النواقيس الأعور الأحدب .

ودخل كازيمودو مربوطاً بالحبال وقد شددت عليه الحراسة . وكان كئيباً صامتاً هادئاً . ومن حين إلى آخر يلقي بعينه نظرة غضب إلى تلك الحبال التي أوثق بها ، أما القاضي فلوريان فكان يقلب أوراق ملف الاتهام الذي أعده كاتب المحكمة ويتأملها ، وبذلك يتمكن من الاطلاع على كل تفاصيل القضية ، ويعرف اسم المتهم وحالته المدنية دون أن يعرف أحد أنه أصم لا يسمع شيئاً ، وكان عازماً على تسيير الدعوى ضد كازيمودو بهذه الطريقة ، فرفع رأسه عن الأوراق وانحنى إلى الوراء وأسبل جفنيه وبدأ الاستجواب بهذه الوضعية المهيبة :

– ما اسمك ؟

ولم ينتبه إلى حالة كازيمودو أحد ، إذ كان أشد صمماً من القاضي فجعل ينظر إليه نظرات ثابتة ولا يجيب ، ولم ينتبه القاضي أيضاً إلى صمم المتهم ، فظن أنه أجاب مثلما يفعل المتهمون جميعاً .

فتابع استجوابه بطريقة آلية غبية :

– حسناً .. كم عمرك ؟

ولم يجبه كازيمودو عن هذا السؤال أيضاً فتابع القاضي :

– حسناً .. والآن إلى الحالة المدنية .

وخيم السكون ذاته ، وبدأ الحاضرون يتهامسون وينظر بعضهم إلى بعض ، وتابع القاضي قائلاً :

– نكتفي بهذا القدر من الأسئلة ، أنت متهم أمامنا بما يلي :

أولاً بإقلاق الراحة ، ثانياً بمحاولة الاعتداء على امرأة مجنونة ، ثالثاً بعصيان رجال الدولة ومنعهم من ممارسة مهماهم الموكلة إليهم . ما دفاعك أمام هذه الاتهامات ؟ أيها الكاتب هل دونت دفاع المتهم ؟

وجاء جواب هذا السؤال ضحك الجمهور وقهقهاهم ، وبلغ من حدة أصواهم أن ينتبه إليها الأصمّان : المتهم

والقاضي ، فالتفت إليهم كازيمودو مستخفاً بهم ، وزجر القاضي فلوريان المتهم قائلاً :

– هل تُضحك الناس بأجوبتك .. أتعرف ما جزاؤك ؟ ومن يكلمك ؟

فلم يعد أحد يتمالك نفسه من الضحك سوى كازيمودو الذي ظل جامد القسمات ، لأنه لا يفهم شيئاً مما يدور حوله .

وحاول القاضي أن يفزع المتهم ، وتنقل عدوى فزعه إلى الحاضرين ، فصرخ فيه :

– أنت أيها الشيطان الذي تمنع القاضي من ممارسة مهماته ، والشرطة من القيام بواجبها ، والله لأجعلنك عبرة لمن يعتبر .

وكان من الممكن أن يستمر في خطبته البليغة هذه ساعات لولا أن فُتح الباب الصغير المؤدي إلى غرفة الاجتماعات ، ودخل منه رئيس القضاة نفسه ، وكان قد

استيقظ متعكر المزاج ، ووصل إلى الجلسة متأخراً ، فسأل المتهم بصوت شرس : ماذا فعلت أيها المجرم حتى جيء بك إلى هنا ؟



وظن المسكين أنه يسأله عن اسمه ، فقطع سكون القاعة بصوته الأجش :

– كازيمودو .

وتعالت أصوات الضحك مرة ثانية ، أما رئيس القضاة روبير فقد احمر وجهه غضباً وصاح :

– أتسخرمني أيها الوغد ؟

فأجابه كازيمودو وقد ظن أنه يسأله عن مهنته :

– قارع النواقيس في كاتدرائية نوتردام .

فقال رئيس القضاة خانقاً :

– قارع النواقيس ؟ لقد حانت ساعة دق ناقوسك وسوف تسمعه باريس كلها .. أتسمع أيها البليد ؟

فقال كازيمودو : تريد أن تعرف عمري ؟ سأبلغ العشرين في عيد القديس سان مارتان .

– آه .. أتهزأ بهيئة القضاة أيها البائس ؟ أيها الضابط .. خذ هذا المتهم واضربه بالسياط في ساحة كريف وأعده إليّ بعد ساعة !

واستمر الكاتب في تسجيل خلاصة الحكم إذ كانت بسيطة موجزة .

الفصل العاشر

ساحة التعذيب

كانت جموع الناس قد تجمهرت في ساحة كريف ، حيث وقف في أنحائها أربعة ضباط شرطة منذ الساعة التاسعة إعلاناً بتنفيذ عقوبة ما ، لعلها لا تكون الشنق بل الجلد بالسياط أو صلم الأذنين أو شيئاً ما شبيهاً بذلك ..

أما منصة التعذيب فكانت مصطبة ارتفاعها عشر أقدام عن الأرض ، في وسطها دولاب يدور على محور من خشب السنديان الصلب يربط إليه المتهم بحيث إذا دار يدور معه وجه المتهم على الحاضرين ، وهذا ما يدعى (تدوير المجرم) .

وصل كازيمودو فأثار عاصفة من التصفير والضحك ، فسوف يعذب على هذه المنصة نفسها التي توج عليها بالأمس (بابا للمجانين) .

ولم يأت بحركة ، إذ كانت القيود والسلاسل تعض في لحمه ، ولا تبدو عليه سوى دهشة المتوحش وغبائه ، وقد عرف أنه أصم ولكنه يظهر كالأعمى أيضاً ، وحين عُرّي من قميصه أثارت حدبة الجمل التي على ظهره ضحك الحاضرين .

وضع المشرفون على التنفيذ ساعة رملية قرب المنصة ، وأمسك الجلاد سوطاً طويلاً له ذوائب بيضاء لامعة تنتهي بمسامير من حديد ، وشمر بيده اليسرى كُمّ يده اليمنى الممسكة بالسوط ، حينئذٍ وقف يوهان فرولو فوق كتفي أحد أصحابه وهتف بأعلى صوته :

– سيداتي ، سادتي .. تعالوا تفرجوا على عقوبة المعلم كازيمودو ، قارع الأجراس في كنيسة أخي ، رئيس الأساقفة . وتدافع الجمهور وخاصة الأطفال والفتيات ، وخبط الجلاد الأرض برجله فبدأ الدولاب بالدوران ، وحاول كازيمودو أن يتخلص من قيوده ، وارتسمت على

وجهه علامات الرعب ، فزادت من بشاعته وضاعفت من ضحك المتفرجين .

وأهوى الجلاد بالضربة الأولى على ظهر كازيمودو ، فصفرت ذؤابات السوط واستقرت على ظهره ، فارتجف لها ألماً ، وكأنه بدأ يدرك ما يحدث له ، فتململ في القيود والحبال ، وتوفزت عضلاته كلها ، ولكنه لم يطلق آهة ألم واحدة ، وهوت عليه ضربة أخرى ، وتبعتها ثانية وثالثة ، والدولاب لا يتوقف عن الدوران ، والضربات تنهال عليه كزخات المطر ، وتفجر الدم من ظهره ، وتناثرت قطرات على جسده الأسمر ، وأصاب المتفرجين رذاذها .

همد جسد كازيمودو وأغمض عينه الوحيدة وسقط رأسه على صدره كالمتماوت .

أخيراً ، اقترب كاتب محكمة شاتليه مرتدياً الملابس السوداء وممتطياً حصاناً أسود ، وكان واقفاً في ناحية منذ بداية التنفيذ ، وأشار بعصاه الأبنوسية إلى الساعة الرملية

وتوقف الجلاد وتوقف الدولاب ، وانفتحت عين كازيمودو بهدوء .

تقدم إليه خادما الجلاد فغسلا جروحه ودهناها بمادة لا ندري ما هي ، ورميا عليه قطعة قماش .

لم ينته عذاب كازيمودو بعد ، فقد بقي عليه ساعة من الجلد ، وقلبت الساعة الرملية على طرفها الثاني ، وتُرك الأحدب على دولاب التعذيب ، وتهاطلت عليه الشتائم والإهانات والضحكات والحجارة من هنا وهناك ، وانهالت عليه ضربات السوط ، فكانت تظهر على وجهه القبيح آلامها وتتقلص لها عضلاته ، وفجأة انفرجت الجموع لتفسح الطريق أمام بغلة تحمل قساً ، فتغيرت قسمات وجه كازيمودو ، وحلت محل الألم والرعب ابتسامة غريبة وديعة عامرة بالحنان ، وكلما اقترب القس ازدادت الابتسامة اتساعاً ترحب بالمنقذ الذي سينتشله من العذاب ، وما إن أصبحت البغلة على مقربة من منصة التعذيب حتى لوى

القس زمامها ، وعاد بها راجعاً ، إنه رئيس الأساقفة كلود فرولو .

وعادت الغيمة أشد سواداً على جبين كازيمودو ، وكانت بقايا ابتسامة ما تزال على شفتيه ، ولكنها تحولت إلى ابتسامة ألم ويأس وحزن عميق ، وتمر الدقائق ، إنه منذ ساعة ونصف تقريباً يُضرب بالسياط ويُعذب ويُهان ويُهزأ به ويُرمى بالحجارة .

– الماء .. الماء !

كانت هذه الكلمة التي نطق بها كازيمودو ، تحرك قلب الصخر الجلمود ، ولكنْ وجد فيها الجمهور الباريسي وسيلة للتسلية ، وصدرت عن كازيمودو استغاثة ثانية :

– الماء .. الماء !

فانفجروا لها ضاحكين ، وكررها كازيمودو ثالثة :

– الماء .. الماء !

حينئذ خرجت من بين الجموع فتاة ترتدي ثياباً عجيبة ، تصحبها عنـــزة بيضاء ذهبية القرنين وهي تحمل طبلة بيدها ، والتمعت عين كازيمودو ، إنها الغجرية التي حاول خطفها الليلة الماضية ، ولم يشكَّ في أنها جاءت لتنتقم منه وتضيف ضربة أخرى إلى ضربات الجلاد .

تقدمت هادئة ، فتحرك كأنه يريد الهرب منها ، ففكت من زنارها مَطَرةً وحملتها بهدوء إلى شفتي كازيمودو المتشققتين . حينئذٍ ، توقرت في عينه الجافة دمعة كبيرة انحدرت بهدوء على وجهه المشوه الذي وقّزه اليأس ، ولعلها أول دمعة يذرفها البائس في حياته كلها ، ونسي أن يشرب ، فظهرت علامات القلق على وجه الفتاة ، وقرّبت فم المَطَرة من شفتي كازيمودو ، فشرب جرعات كبيرة وأطفأ ظمأه ، وحين ارتوى مطّ شفتيه السوداوين لكي يقبل اليد التي أحسنت إليه ، ولكن الفتاة التي لم تنس ليلة البارحة سحبت يدها بحركة الطفل الخائف من عضة حيوان ، فثبّت عليها

الأصم البائس نظرةً حافلة بالعتاب والأسى اللذين لا يمكن وصفهما ، وكان مشهداً مؤثراً ، مشهد تلك الفتاة الجميلة النضرة والضعيفة في آن واحد ، وهي تهبّ إلى مساعدة هذا المشوّه الشرير ، كان على منصة التعذيب مشهد رائع لا يُنسى . وجعل الناس يحيونها وهي تصفق بيدها وتهتف : نويل ، نويل .

الفصل الحادي عشر

زيارة الغجرية

لقد انقضت عدة أسابيع على الأحداث التي روينا تفاصيلها ، وكان الوقت أوائل شهر آذار ، والأيام الأولى للربيع بوقته وسحره ، حتى إن باريس كلها قد انتشرت في الساحات والمنتزهات ، وكأنها في عطلة يوم الأحد .

في هذه الأيام التي يصحو فيها الطقس ، وتضيء الشمس بنورها ، ينبغي التفرج على كاتدرائية نوتردام وقت الغروب ، إذ ترسل الشمس أشعتها على واجهة الكاتدرائية ، وتبرز نقوشها المحفورة في الحجر الذي يغدو أحمر اللون ، وفي وسطها وردة تشع كأنها عين تنظر إلى ما حولها .

في زاوية من شارع بارفيس يوجد منـزل مبني على الهندسة القوطية يدل على ثراء ساكنيه ، وقد جلست في

شرفته الواسعة عدة فتيات وهن يتمازحن ويتضاحكن ، وتنفتح هذه الشرفة على قاعة مفروشة بأثاث من الجلد تزينه شرائط مذهبة ، وبجانب المدفأة جلست سيدة المنـــزل ، وتدعى مدام ألويزدي غونديليه ، ووقف بقربها شاب يرتدي الثياب الزاهية لضابط في الحرس الملكي ، ومن حين إلى آخر توجه إليه السيدة العجوز بعض الكلمات بكثير من الملاطفة المصطنعة ، وتستطيع أن تدرك من غمزها إلى ابنتها فلورديلي والكلمات الهامسة التي تتبادلها معها ، أن الأمر يدور حول خطبة بين الآنسة والضابط ، كما تستطيع أن تلمح من البرودة التي يتحدث بها الضابط أنه ليس في الأمر قضية حب ، ولكن السيدة في غمرة إعجابها بابنتها لم تلحظ البرودة التي يواجهها بها الضابط ، وهي تعدد له محاسنها قائلة :

– هل رأيت يا بن عمي ، أبهى من هذا الوجه الضحوك ؟ أو رأيت يدين أرشق أو أشد بياضاً من يديها ؟

أليس عنقها هذا عنق البجعة ؟ أليست ابنتي فلورديلي جديرة بالإعجاب ؟

فيجيبها وهو يفكر بشيء آخر :

– لا ريب في ذلك .

فتدفعه السيدة ألويز دفعة خفيفة في كتفه ، وتقول له :

– كلّمها .. قل لها شيئاً .. إنك خجول حقاً .

في تلك اللحظة تدخل بيرانجير وهي طفلة في السابعة ، وتنادي بعد أن تأملت الشارع :

– انظري يا سيدتي إلى تلك الفتاة الجميلة التي تؤدي رقصاتها في الشارع أمام الناس وتدق الطبلة بيدها !



وتصاعدت من الشارع أصوات الطبلة التي تدق عليها الفتاة .

نظرت فلورديلي إلى الساحة بلا مبالاة ، وقالت :

– إنهم بعض الغجر .

وهتفت صاحباتها ، وجرين نحو الشرفة :

– هيا نتفرج .. هيا نتفرج !

وكان الشاب متكئاً على إفريز المدفأة ، ولا ندري فيم كان يفكر ، فالتفتت إليه فلورديلي فجأة وقالت له :

– ألم تحدثنا يا بن العم عن فتاة غجرية أنقذتها في إحدى دورياتك الليلية منذ شهرين من أيدي عشرة من اللصوص ؟

فقال الضابط :

– نعم ، أعتقد ذلك يا بنت العم .

– لعلها هذه الغجرية التي ترقص في الشارع ، تعال وانظر إليها ، ربما تتعرف إليها يا بن عمي فوبوس !

فتوجه الضابط فوبوس بخطوات متثاقلة نحو الشرفة .

قالت له فلورديلي :

– انظر .. إنها تلك الصغيرة التي ترقص داخل الحلقة ، هل هي الغجرية التي أنقذتها ؟

– نعم عرفتها ، لأن معها عنـــزتها .

فقالت إحدى صاحبات فلورديلي :

– آه .. ما أجمل هذه العنـــزة الصغيرة ؟

وسألت بيرانجير :

– وهل قرناها من ذهب حقيقي ؟

وهتفت الفتاة التي تحت الإسميرالدة أولاً ، وأشارت إلى الكاتدرائية :

– يا عمتي .. من هذا الرجل الأسود الذي في قمة برج نوتردام ؟

ورفعت البنات عيونهن إلى أعلى ، كان في قمة البرج المطل على الساحة رجل يتكئ على مرفقيه ، إنه القس وقد بدت بوضوح بذلته ووجهه بين كفيه ، وكان جامداً كالتمثال يراقب الساحة . قالت فلورديلي :

– إنه رئيس الأساقفة .

ثم التفتت إلى الضابط :

– يا بن عمي فوبوس ، ما دمت تعرف الغجرية فلم لا تدعوها للصعود إلينا لنتسلى معها ؟

وهتفت البنات وهن يصفقن بأيديهن :

– نعم .. نعم .. نادها !

فأجاب فوبوس :

– ولكن هذا جنون .. لا ريب أنها نسيتني ، ولكن إذا كانت هذه رغبتكن فسوف أناديها .

وانحنى على الشرفة ، ونادى :

– يا صغيرة .. أنتِ هناك !

ولم تكن تدق طبلتها هذه اللحظة ، فرفعت وجهها ناحية الصوت ، وتركزت عيناها على فوبوس فوقفت جامدة ، وعاود الضابط نداءه :

– يا صغيرة !

وأشار إليها بإصبعه أن تأتيَ ، فتأملته الفتاة لحظة وقد احمرّ وجهها ، وجعلت الطبلة تحت إبطها وتوجهت بخطوات

بطيئة نحو الدار التي ناداها منها فوبوس ، وكأنها عصفور أذهله ثعبان .

بعد لحظات انفتح الباب ، وظهرت الغجرية مترددة لاهثة وعيناها الواسعتان تنظران إلى الأرض ، ولم تتقدم خطوة أخرى ، كان لظهورها تأثير خاص على الفتيات ، والمؤكد أن رغبة غامضة في إرضاء الضابط قد اجتاحتهن جميعاً ، وأن البذلة البراقة هي هدف حركاتهن المتكلفة ، وأن نوعاً من التنافس قد نشأ بينهن منذ حضر الضابط إلى القاعة ، وبما أنهن على مستوى واحد من الجمال ، فقد دخلن المعركة بأسلحة متكافئة أملاً في النصر ، وحين دخلت الغجرية اختل هذا التوازن ، إذ كانت على قدر من الجمال بحيث شع في القاعة نور غريب منذ وطئت القاعة قدماها ، وكأنك رفعت مشعلاً باهراً في ظلام الليل ، وقد أعشت عيون البنات رغماً عنهن ، وشعرن كأن عدوة لهن دخلت

المعركة ، فتحالفن ضدها جميعاً ، واستقبلن الغجرية ببرودة شديدة . وقطع الضابط الصمت المخيم عليهن فقال :

– والله إنها مخلوقة فاتنة ، ما رأيك يا بنت عمي الجميلة ؟

فأجابته فلورديلي بصوت خفيض :

– لا بأس بها .

وهامست الفتيات ، وأما السيدة ألويز التي لم تكن أقلهن غيرة منها ، خوفاً على ابنتها ، فخاطبت الراقصة قائلة :

– اقتربي ، يا صغيرة !

وتقدمت الغجرية نحو السيدة النبيلة ، فقال لها الضابط وخطا نحوها خطوات :

– لا أدري أيتها الحسناء ، إن كنت تذكرينني ..

فقاطعته وقد رمته بابتسامة ورفعت إليه نظرة وادعة :

– نعم أذكرك .

فلاحظت فلورديلي :

– ذاكرها قوية .

واستأنف الضابط كلامه :

– لقد نجوتِ تلك الليلة .. فهل أخفتك ؟

فقالت الغجرية :

– لا .. لم تخفني .

وشعرت فلورديلي بأن غُنّة صوتها عابقة بكثير من المعاني ، وتعاظم هذا الشعور لديها حينما قال الضابط :

– والله إنها فتاة فاتنة .

وقالت إحدى الفتيات واسمها ديان :

– ولكن ملابسها غريبة .

وأضافت فتاة أخرى تدعى أميلوت :

– وأين تعلمت التسكع في الطرقات بلا صدرية ولا ياقة قميص ؟

وسارعت الفتيات يسخرن من ثيابها ويلمزنها بكلامهن المهين ، ويرمينها بنظرات السخرية والاستهزاء ، وجعل الضابط يحرك مهمازيه الذهبيين ويقول ضاحكاً :

– لا تهتمي بكلامهن .. ولا ريب أن زيّك غريب لا يجرؤن على ارتدائه .. ولكن جمالك يشفع لك .

فقالت الفتاة الشقراء ، واسمها غايفونتين وقد مدت عنقها كعنق البجعة :

– أرى سيدي الضابط من الحرس الملكي قد اشتعلت فيه النار من عينيِ الغجرية الجميلتين .

فقال فوبوس :

– ولم لا ؟

وكانت الغجرية قد خفضت بصرها لكلام الفتاة ، فرفعت عينيها عن الأرض وقد أشعّتا بالفرحة ورمقت بها فوبوس ، واستعادت ذاتها في هذه اللحظة . أما السيدة

العجوز التي ترقب هذا المشهد فقد أحست بالإهانة ولم تعرف لذلك سبباً . وصرخت فجأة :

– آه .. يا رب . ما هذا الذي يتحرك بين قدميّ ؟ ما هذا الحيوان القبيح ؟ كانت العنــزة قد وصلت بعد طول بحث عن صاحبتها الغجرية ، وجعلت تحك قرنيها بقطعة القماش التي غطت بها السيدة النبيلة قدميها ، فمالت الغجرية إلى العنــزة واحتضنت رأسها وكأنها تعتذر لها .

وتوجهت ديان وكولومب إلى الغجرية بالحديث :

– لماذا لا تقوم عنــزتك بأعجوبة أمامنا ؟

فقالت الغجرية :

– لا أفهم ما تقصدانه .

– أعجوبة ، سحر ، نوع من الشعوذة .

– لا أفهم .

واستمرت في معانقة العنـــزة والتربيت عليها وهي تردد : " جالي .. جالي " حينئذٍ لمحت فلورديلي كيساً من الجلد المطرز يتدلى من عنق العنـــزة .

فسألت الغجرية :

– ما هذا ؟

فرفعت إليها عينين واسعتين وقالت جادة :

– إنه سر .

وفكرت فلورديلي : " لا بد أن أكشف هذا السر" .

وقالت لها السيدة العجوز :

– إذا لم ترقصي لنا ولم ترقص عنـــزتك فالأحسن أن تنصرفي .

فلم تجبها الغجرية وإنما توجهت إلى الباب ، وكلما دنت منه أبطأت خطواتها ثم التفتت نحو فوبوس والدمع يترقرق في عينيها .

فهتف فوبوس :

– لا تنصرفي هكذا .. عودي وارقصي لنا .. ما اسمك أيتها الحسناء ؟

فقالت له ولم ترفع عينيها عنه :

– الإسميرالدة .

فانفجرت الفتيات بالضحك استهزاء باسمها .

أثناء ذلك كانت الصغيرة بيرانجير قد أغوت العنـــزة بقطعة حلوى ، وجذبتها إلى زاوية القاعة دون أن ينتبهوا إليها ، وسرعان ما انعقدت الصداقة بينهما ، وقطعت الفتاة الفضولية الكيس الصغير من عنق العنـــزة ونثرت محتوياته على الأرض ، كان فيه حروف أبجدية مكتوبة على أوراق متفرقة ، وما إن رأت العنـــزة هذه الحروف حتى جذبت بعضها بهدوء – وكانت هذه أعجوبتها – ورتبتها بنظام خاص فوق الأرض بعد شيء من التردد ، وشبكت بيرانجير أصابعها إعجاباً وهتفت :

– فلورديلي .. انظري ما فعلت العنـــزة !

كانت الحروف المرتبة تشكل كلمة : فوبوس .

وفكرت فلورديلي : " هذا هو سرها " .

وسارع الجميع لهتاف الصغيرة ، ورأت الغجرية تلك الحماقة التي ارتكبتها العنـــزة ، فاصطبغ وجهها بالحمرة ، ثم شحبت وجعلت ترتجف كأنها مذنبة أمام الضابط الذي كان يرمقها بابتسامة رضا ودهشة .

وتهامست الفتيات مذهولات :

– فوبوس .. إنه اسم الضابط .

قالت فلورديلي للغجرية :

– إن لك ذاكرة رائعة .

ثم سقطت مغمى عليها ، وصرخت الأم المذعورة :

– بنتي .. بنتي .. اذهبي أيتها الغجرية إلى الجحيم !

جمعت الإسميرالدة الحروف بسرعة وأشارت إلى جالي وانصرفتا ، على حين كانت البنات والأم يحملن فلورديلي

ويحاولن إنعاشها ، أما الضابط الذي بقي وحيداً فقد تردد لحظات ثم لحق بالغجرية .

الفصل الثاني عشر

قلب رقيق

لئن خرج فوبوس على إثر الغجرية ، فليس لأنه يريد أن يراه الناس بصحبتها ، فالضابط النبيل يرى من المهانة أن يرافق هذه الراقصة في الطرقات ، الغجرية التي تصاحب القتلة واللصوص ، المتهمة بالسحر والشعوذة .

لقد كان حريصاً على سمعته ، ولكنه همس لها دون أن يحرك شفتيه أو يتوقف ، وحدد لها موعداً هذا المساء في مكان لا يخشى أن يراه فيه أحد ممن يحيطون بفلورديلي . ووقفت الإسميرالدة فوراً ، لم تكن تلك الساذجة تعرف ما يخبئه لها القدر ، ولكنها كانت تطمح إلى أن تشق طريقها في هذه المدينة الكبيرة وتتطلع إلى عالم المثال ، العالم المجهول الذي ينتسب إليه فوبوس كما يتطلع المؤمن إلى دخول الجنة .

وكان صفاء هذه الفتاة الصغيرة قد جعل منها فريسة سهلة المنال ، ولو كانت امرأة سواها لرفضت هذا الموعد الذي ضربه لها فوبوس ، ولم تكن الإسميرالدة الساذجة لتظن فيه نوازع الشر ، ولم تكن تأمل أن يعاملها كما يعامل فتاة من طبقته ، وهي على أي حال تتمنى أن تقابله على انفراد ، فقبلت هذا الموعد وكأنه عربون حب .

حينما وصلت إلى الشارع حيث ينتظرها بيير غرينغوار زوجها المزعوم لم تلاحظ ما حدث في غيبتها ، وذلك أن الجمهور قد نفد صبره حين دخلت المنـــزل ، فأراد غرينغوار أن يرفّه عنه بانتظار عودتها ، وكانت لعبته التي تعلمها بالإضافة إلى الفلسفة ونظم الشعر ، هي أن يرفع بأسنانه هرماً من الكراسي المتراكم بعضها فوق بعض وفي أعلاها قطة مربوطة ، وكان شاعرنا قوي الأسنان وقد أراد أن يثبت مقدرته كما أثبتها في نظم القصائد ، فما كاد يرفع هرم الكراسي حتى تهاوى وانطلقت القطة تخمش من يقف في

طريقها ، وانتهز الفوضى العارمة فالتجأ إلى الكنيسة حيث وجد كلود فرولو الذي أشار إليه أن يتبعه .

وجعل القس يتأمل بذلته ذات اللونين الأصفر والأحمر دون أن يبدو عليه أنه هازئ به ، بل كان جاداً أشد الجد يرميه بنظرات حادة كاد أن يتجمد لها غرينغوار . قال له :

– إنك تمارس مهنة رائعة .

– لا شك أن الأجدى للمرء أن يتفلسف وينظم الشعر من أن يحمل الكراسي بأسنانه ، ولكن علينا أن نعيش ، وإن أروع الأشعار من البحر الطويل لا تساوي قطعة جبن صغيرة تمضغها الأضراس ، و قد علّمني أصحابي الرعاع هذه الألعاب ، ولا ريب أنها مهنة لا تتناسب مع مواهبي الفكرية ، فلم يخلق الإنسان ليقضي حياته يحمل الكراسي بأسنانه على دق الطبول ، ولكن يا سيدي القس لا يكفي المرء أن يعيش ، بل عليه أن يكسب لقمة عيشه أيضاً .

وكان القس كلود يصغي إليه ساكتاً ، وفجأة التمعت عيناه وحدقتا في غرينغوار حتى ظن انهما تخترقان عمق روحه :

– حسناً يا أستاذ بيير .. ولكن كيف حدث أن أصبحت الآن تسعى مع هذه الراقصة الغجرية ؟

وبدأ غرينغوار يروي له قصة زواجه العجيب ، وكيف أن الإسميرالدة قد أنقذته ، واعترف بفضلها عليه ، وهو يراها مخلوقة مسالمة رائعة ، وأن أهل حارتها يحبونها لمرحها ولطفها وغنائها . وختم غرينغوار حديثه قائلاً :

– ولا تظن أن أحداً في المدينة كلها يكرهها سوى شخصين : امرأة منعزلة في برج رولان ، فهي تلعنها كلما مرت أمام نافذتها ، وأحد القساوسة الذي لا يراها حتى يخيفها بألفاظه ونظراته .

وحين أنهى غرينغوار كلامه أمسكه القس من كتفيه وساقه إلى خارج الكنيسة ثم حث خطاه واختفى بين

أعمدها ، ونظر إلى الساحة فلم يجد خطراً يتهدده ، إذ أن المتفرجين وضحايا لعبته قد نسوه وهم يتفرجون على الإسميرالدة الغجرية التي لا تفكر إلا بشخص واحد هو فوبوس وبموعده الذي همس لها به .

الفصل الثالث عشر

حب المتوحش

إن الحب المتحكم في شغاف القلب لم ينشأ لدى فوبوس إذ شاهد الإسميرالدة ، وإنما نشأ في قلب قارع الأجراس في كنيسة نوتردام ، لقد كان كازيمودو – الأعور الأصم ، المعوج الساقين ، اللامثيل لقبحه – يحب الإسميرالدة حباً يفوق حبها لفوبوس ، وهذا سر لم يطلع عليه أحد ، ولكنه بدّل أجواء المدينة كلها بهذا الحب .

لقد كانت نواقيس الكنيسة من قبل تصدح مرحة يتسابق رنينها في ألحان موزونة تعلن بأفواهها النحاسية عن بهجة الحياة ، وأما الآن فقد فارقتها الروح وكأن الكنيسة الكئيبة قد أخلدت راضية إلى السكون .

لا فرق لدى النواقيس بين رنين الحزن ورنين الأعياد ، وإنما هي طقوس تُؤدّى بما تقتضيه بلا زيادة أو نقصان .



لو أن العقوبة التي أنزلت بكازيمودو قد نالت سواه لحطمت روحه ، ولكن القلب القاسي والروح البدائية اللذين يملكهما كازيمودو يجهلان هذه المذلة ، ولم يحتفظ من منصة التعذيب إلا بذكرى صافية نضرة كأنها ماء الغدير ، وقد اتسع أمام بصره عالم جديد أطلعته عليه الإسميرالدة حين روّت عطشه وهي ضحيته ، فسكنتْ حينئذٍ فكرَه وروحَه ، وكانت صورتها الوضاءة ترافقه في حركاته وسكناته عبر الكاتدرائية وفي ذرى هذه الغابات الحجرية من أعمدة وتماثيل .

وأحياناً كان يبصرها من عليائه ، فيتوقف عن الحركة وينسى كل شيء سوى النظر إليها والتملي في جمالها .

الفصل الرابع عشر

حب سيد مهذب

لقد رأينا كيف أزهر في قلب ذلك الرجل المشوه حب صادق خجول ، فكيف هو حب ذلك الذي مالت إليه الإسميرالدة ؟ تستطيع أن تكوّن فكرة عن هذا الرجل حين تعرف المكان الموبوء الذي يرتاده كل مساء مع رفاق السوء ، ومن بينهم يوهان التلميذ المعروف بسيرته الفاسدة .

وعلى حين كانت الإسميرالدة تخترق شوارع باريس ودروبها الضيقة المعتمة متوجهة إلى لقائه ، كان هو يقضي وقته مع المتسكعين والمبذرين أموالهم على المتع المبتذلة ، وما إن أصبحت الساعة الرابعة حتى نهض وقال لصاحبه يوهان :

– يجب أن أتركك الآن ، إنها السابعة وعندي موعد مع حسناء .

وما إن دخل شارع سانت أندريه ديزار حتى أبصر أشباح رجال تزحف وراءه ، فلم يهتم بهم فهو رجل شجاع يستطيع السيطرة عليهم بقبضة يد واحدة ، وكان اعتداء اللصوص على المارة أمراً معتاداً في ذلك العهد ، فما إن تغيب الشمس حتى يدخل الناس بيوتهم ولا يخرجوا منها .

وصل أخيراً أمام باب واطئ وقرعه بعنف ، وسأل صوت من الداخل :

– من هناك ؟

فعرّف بنفسه ، فانفتح الباب عن امرأة عجوز ، ودخله وهو يسأل كمن تعود المجيء إلى هنا :

– هل الغرفة جاهزة ؟

– في خدمتك سيدي .



ووضعت الدينار الذي أعطاه لها في الدرج ، وحينما أدارت ظهرها سارع ولد صغير فالتقطه ووضع مكانه ورقة شجر صغيرة يابسة .

وجعل فوبوس يتمشى في الغرفة بفارغ الصبر ، فكانت أرضيتها تصدر أصواتاً غريبة وكأنها ستنهار تحت قدميه .

الفصل الخامس عشر

الحب البريء

فجأة سمع صوت الدرج الخشبي يئن تحت خطوات شخص يصعد ، ثم جاءت العجوز تحمل المصباح ووراءها الإسميرالدة الحسناء ، لقد أسلفنا القول إن هذه الفتاة الساذجة قد وجدت أمراً طبيعياً أن ترى فوبوس في هذا المكان المنعزل ، ولكن حينما تركتها صاحبة البيت وبقيت وحدها أحست بانقباض في روحها ينبئها بأنها لم تكن على صواب ، فاحمرت خجلاً وندماً وفرشت رموشُ عينيها ظلاً على خديها ، وجلست أمامه على مقعد خشبي ، والعنــزة قابعة أمام قدميها .

وحاولت أن تعتذر فقالت دون أن ترفع عينيها :

– ليعذرني سيدي إذا قلت له إني أحس بالذنب .

فأجابها بلهجة افتخار واعتزاز :

– ولماذا الاعتذار أيتها الحسناء ؟

– لأني جئت معك .

فقال لها :

– لا أعذرك ولكني أحقد عليك .

نظرت الفتاة جزعة :

– ولماذا تحقد علي ؟

– لأنك تمنّعت عليّ مدة طويلة .

بقيت الإسميرالدة ساكتة برهة ثم انحدرت الدموع من عينيها وتنهدت قائلة :

– آه يا سيدي .. إني أحبك .

وكان يضوع من الفتاة عطر الطهارة والبراءة ، حتى إن فوبوس لم يشعر بارتياح ، ولكن أعجبه هذا القول فقال :

– تحبينني ؟ ثم طوق خصرها بذراعيه ، فتابعت قولها :

– فوبوس ، إنك رجل شهم كريم أنقذت حياتي ، أنا الفتاة الغجرية ، ولطالما حلمت بأن ينقذ ضابط حياتي ، وكنت أنت تفسير حلمي بجمالك وقوامك وسيفك .

لم يسمع فوبوس طول حياته مثل هذه الموسيقا ، لأن السيدات من طبقته يتكلفن الحديث بعبارات منمقة تمس سمعه ولكنها لا تمس قلبه ، وأما هذه الغجرية فقد تسربت كلماتها إلى شغاف قلبه ، ولو كانت في حضرة رجل عالي النفس كريم الروح لجثا على ركبتيه أمامها طالباً الصفح لأنه جاء بها إلى هذا المكان الموبوء .

أما فوبوس فلم تكن له من المزايا سوى قوة بطشه وجمال وجهه ، ولكنهما لم يسهما في الرقي بروحه .

وقد أمتعه وَجْدُ الغجرية به ولم يدهشه ، فنهض كالطاووس يستعرض قوامه ويتمشى لكي تسمع رنين مهمازيه .

فهتفت الفتاة :

– آه .. ما أروعك !

فعلت وجهه ابتسامة واتخذ مكانه بجانبها وقال :

– اسمعي يا عزيزتي .

– لا .. لا .. لا أريد أن أسمع منك سوى كلمة واحدة : هل تحبني ؟

– تسألينني إن كنت أحبك ؟ يا ملاك حياتي ، إن جسدي ودمي وروحي ملك يديك ، إني أحبك ولم أحب امرأة سواك .

ولطالما ردد هذه العبارات المعسولة على مسامع الفتيات قبلها ، بحيث اندفع في إلقائها دون أن تخونه ذاكرته ، وأحست الغجرية كأنها تحلق في السموات العلى وقد تملكها حب ملائكي فهمست :

– آه .. كم أتمنى لو أموت اللحظة !

وهتف الضابط :

– تموتين ؟ ماذا تقولين يا ملاكي الجميل ؟ إنها بداية الحياة الهانئة لك ، اسمعي يا عزيزتي سميلا .. عفواً الإسميرالدا .. ولكنّ اسمك الشرقي يصعب علي النطق به .

– يا إلهي .. كنت أظن اسمي متميزاً لا يشبهه اسم آخر .. وإن شئت نادني غوتون .

– لا تبكي لهذا الأمر اليسير .. سأعتاد عليه ، وسوف أحفظه عن ظهر قلب ، وأعرف فتاة تموت حسداً منك .

– من هي ؟

– وهل يهمك أمرها ؟ هل تحبينني ؟

– آه ..

– هذا كل ما يهمني ، وسترين كم أحبك أيضاً ، وليأخذني الشيطان إليه إن لم أجعلك أسعد كائنات الأرض . سأستعرض تحت نافذتك فرقتي العسكرية ، سآخذك لتتفرجي على أسود القصر الملكي ، وهي حيوانات متوحشة ، كل النساء يحببن هذا .

كانت الفتاة غارقة في أفكارها مسحورة بها تسمع كلماته دون أن تصغي إلى معانيها ، والتفتت إليه فجأة وقالت بلهجة حب عارم :

– دعنا نتزوج فوراً .

فارتسمت على وجهه تعابير الدهشة والكراهية ، وفكر : " هذه الغجرية المتشردة الراقصة على الطبلة .. هل هي مجنونة حتى تطمح إلى الزواج بي ؟ وأنا الذي أتوقع منها متعة عابرة ؟ " .

ونظرت الغجرية إليه فلم تعد ترى فيه فوبوس الذي تخيلته ، وإنما شخصاً آخر له ملامح القاتل ، وهجم عليها يريد افتراسها ، فالتمع خنجر وصرخ الضابط :

– أيتها الملعونة !

وأغمي عليها .

وحين أفاقت من غشيتها ، وجدت نفسها محاطة بالجنود ، وقد حملوا الضابط الغارق في دمائه ، والنافذة المطلة

على النهر مفتوحة على مصراعيها ، وسمعت من يقول بجانبها :

– إنها ساحرة ، طعنت ضابطاً .

الفصل السادس عشر

إسميرالدة أمام القضاء

كان غرينغوار وكل سكان (ساحة العجائب) في حالة من القلق القاتل ، وقد مرّ شهر على اختفاء إسميرالدة مع عنــزتها ، وقد بحث عنها ملك مصر وأتباعه من المجرمين ولم يعثروا عليها .

ذات يوم كان الشاعر يمر أمام المحكمة ، فرأى جمعاً غفيراً من الناس فسأل أحد الفتيان :

– ماذا يحدث هنا ؟

– لا أدري يا سيدي .. يقال إنهم يحاكمون فتاة اغتالت ضابطاً في الحرس الملكي ، وأظنهم تحدثوا عن قضية تتعلق بالسحر ، وإن أخي رئيس الأساقفة في نوتردام ضالع فيها .

لم يجرؤ غرينغوار أن يقول للفتى إنه يعرف أخاه رئيس الأساقفة ، والذي لم يره منذ شاهده وهو يرفع الكراسي

بأسنانه . وتابع الفتى طريقه ومشى كرينغوار وراء الجمهور الذي يصعد الدرج .

قال في نفسه : لا شيء ينسيني همومي مثل حضور المحاكمة .

كانت القاعة فسيحة معتمة مما زادها اتساعاً ، ولم يكن ضوء النهار يخترق نوافذها العالية ، وبدا مَنْ في القاعة كالأشباح تتحرك في الظلام ، وقد اشتعلت الشموع هنا وهناك ، فانعكس نورها على وجوه كتبة المحكمة المنصرفين إلى أوراقهم .

وسأل غريغوار شخصاً بجواره :

– من هؤلاء الرجال المصطفون هناك ؟ هل هم القضاة ؟

فأجابه الرجل :

– أما الرجال في الملابس الحمراء فهم من المحكمة العليا ، والرجال في الملابس السوداء هم قضاة التحقيق .

– وهذا الرجل بثيابه الحمراء الزاهية ؟

– إنه رئيس المحكمة .

– وهؤلاء الخراف وراءه ؟

– انهم محامو الدفاع !

– وهذا الخنـــزير أمامه ؟

– إنه كاتب المحكمة .

– وهذا التمساح على يمينه ؟

– إنه الأستاذ فيليب لوهليه محامي الملك الخاص .

– وهذا القط السمين على يساره ؟

– إنه الأستاذ جاك شارمولي ، إنه النائب العام في محكمة الكنيسة مع الهيئة الدينية العليا .

– وماذا يفعل كل هؤلاء القوم ؟

– يحاكمون .

– يحاكمون ؟ من يحاكمون ؟ لأني لا أرى المتهم .

– إنها متهمة ، هي امرأة لا تراها من مقعدك هنا لأنها أدارت لنا ظهرها وأخفاها الزحام عنا .

وسأله غرينغوار :

– من هذه المرأة ؟ هل تعرف اسمها ؟

– لا يا سيدي فقد جئت الآن ، ولكن القضية تتعلق بالسحر حتماً لأن الهيئة الدينية تشهد المحاكمة .

هناك طلب منهم رجل بجانبهم السكوت فقد بدأت المحاكمة .

تكلمت امرأة عجوز ملتفة بثيابها ولا يظهر منها سوى عينيها فقالت :

– يا سيدي الكريم ، أنا امرأة فقيرة أسكن منذ أربعين سنة حارة سان ميشيل المطلة على النهر ، وذات يوم طرق الباب ضابط وطلب مني غرفة في الطابق الأول ، ودفع لي ديناراً وضعتُه في الدرج ، وقلت لنفسي : سأشتري به غداً لحماً من السوق ، وبعد قليل طرقت الباب فتاة غجرية ومعها

تيس أبيض أو أسود ، لا أدري ، ولم تنظر الفتاة إليّ ولكن التيس حدّق بي بعينين ملتهبتين ، وصعدتْ إلى غرفة الضابط والتيس يتبعهما ، وبعد وقت قصير سمعت صرخة مخيفة وشيئاً يسقط على أرض الغرفة ، فجريت ويا للهول ما رأيت ! غرفة ملوثة بالدماء ، والضابط ممدد على الأرض وقد انغرس خنجر في عنقه ، والفتاة مثل القتيلة ، وأما التيس فكان يقفز في كل مكان ، فاستدعيتُ الحرس فدخلوا ، وشرحت لهم ما حدث ، وصعدنا جميعاً إلى أعلى .. وحملوا الضابط المسكين وأَنْهضوا الفتاة ، ولكن الأمر الذي اقشعر له بدني هو أني حين فتحت الدرج لآخذ الدينار ، وجدته قد تحول إلى ورقة شجرة يابسة . وسكتت العجوز .

وارتفعت همهمة عالية بين جمهور الحاضرين .

وقال أحد جيران غرينغوار :

– هذا التيس وهذه الورقة اليابسة تفوح منها رائحة السحر .

وكان غرينغوار متفقاً معه في رأيه ، ثم نهض القاضي الذي شبهه غرينغوار بالتمساح وقال :

– وهل جئت معك بتلك الورقة اليابسة التي تحول الدينار إليها ؟

فأجابت :

– نعم يا سيدي .. لقد وجدتها .. وها هي ذي !

فأخذها الكاتب وقدمها للتمساح الذي هز رأسه وأرسلها إلى محامي الملك ثم إلى الهيئة الدينية بحيث تنقلت بين أيدي القضاة كلهم .

قال الأستاذ جاك شارمولي :

إنها ورقة بتولة وهي دليل قاطع على ممارسة السحر ، وقد أزال هذا الرأي القاطع كل شكوك الحاضرين .

وتابع محامي الملك قائلاً :

– إن بين أيدي السادة كل الوثائق بما فيها أقوال فوبوس شاتوبرس .

وما أن نطق اسمه حتى نهضت المتهمة وظهر رأسها ، فارتعد غرينغوار إذ كانت الإسميرالدة .

كانت شاحبة ، وأما شعرها الذي كانت تمسده وتجدّله فقد تناثر أشعث حول كتفيها ، وشفتاها زرقاوان وعيناها غائرتان من الرعب ، وهتفت :

– فوبوس ؟ أين هو ؟ يا سادتي بحق الله قولوا لي قبل أن تقتلوني إن كان ما يزال حياً .

فأجابها رئيس القضاة :

– اخرسي يا امرأة ، ليست هذه القضية الآن !

فشبكت يديها الرقيقتين ضارعة وقالت :

– أرجوكم ، قولوا لي إن كان ما يزال حياً .

فقال محامي الملك بجفاء :

– إنه على وشك الموت ، هل فرحت ؟

فارتمت البائسة على مقعدها صامتة وكأنها دمية من الشمع .

– أيها البواب .. أدخل المتهمة الثانية .

وتوجهت الأنظار كلها نحو باب صغير بجانب القاعة ، ورأى غرينغوار مندهشاً العنــزة ذات القرنين والظّلفين المذهّبين ومدت عنقها ، وفجأة رأت الغجرية فقفزت فوق الطاولة وفوق رأس الكاتب ، وجلست فوق ركبتي الغجرية ، وجعلت تحك رأسها بقدمي صاحبتها تستجدي منها كلمة أو لمسة حنان ، ولكنها ظلت جامدة ولم ترفع جالي نظرها إليها .

وقالت العجوز :

– إنها هي .. الحيوان البشع .. وأعرفهما الآن جيداً

وتدخل جاك شارمولي :

– إذا أذِنَ لي القضاة فسأعمد الآن إلى استجواب العنــزة . حينئذ نهض محامي الادعاء للهيئة الدينية وقال :

– إذا استمر الشيطان الساكن جسد العنــزة في ألاعيبه ، فسوف نضطر بعد إذن هيئة القضاء الموقرة إلى إحراقها حية .

وتصبب العرق بارداً من جبين غرينغوار ، ثم أمسك شارمولي بطبلة الغجرية وعَرَضها بطريقة خاصة على العنــزة وقال :

– كم الساعة الآن ؟ .

فرمته العنــزة بنظرة ذكية ، ثم رفعت قدمها الذهبية ودقت عليها سبع مرات ، وكان الساعة السابعة فعلاً ، واجتاحت جمهورَ الحاضرين حركة فزع ، ولم يعد غرينغوار قادراً على السكوت فصرخ بأعلى صوته :

– إنها مدربة .. ألا ترونها لا تدرك ما تفعله ؟

وصرخ به الكاتب : سُكُوت .

وتابع جاك شارمولي هذه العملية بأن طلب من العنــزة تاريخ اليوم والشهر والسنة مما يعرفه القارئ من قبل ، وإن

المتفرجين الذين صفقوا لهذه الألاعيب الساذجة التي تقوم بها جالي في شوارع باريس ، قد وجدوا فيها أموراً دالة على السحر تحت قاعة المحكمة ، وقطعوا بأن العنــزة هي الشيطان نفسه ، وساءت الأمور أكثر حينما فتح شارمولي الصرة الجلدية المعلقة في رقبة العنــزة ونثر حروف الأبجدية المتقطعة ، وطلب من العنــزة أن تعيد ترتيبها ، فإذا هي كلمة : فوبوس .

وقال رئيس المحكمة :

– أيتها الفتاة ، أنت من جنس الغجر ، وقد تدربت على السحر ، وإنك بالتواطؤ مع هذه العنــزة المسحورة

وبمساعدة من قوى الظلام قد عمدت ليلة 29 آذار إلى طعن وقتل ضابط في الحرس الملكي المدعو فوبوس شاتوبرس ، فهل تصرين على إنكار التهمة الموجهة إليك ؟ .

فأخفت الفتاة يديها بين كفيها وهتفت :

– ياللهول .. آه يا فوبوس .. إنه الجحيم .

فسألها رئيس المحكمة ببرودة :

– أتصرين على الإنكار ؟

فنهضت وقد التمعت عيناها :

– نعم إني مصرة على الإنكار ، أطالب بمتابعة الاستجواب .

وارتعشت البائسة رعباً ، وجذبها الحرس إلى باب صغير في صدر القاعة وخرجوا منه جميعاً ، ورفعت الجلسة .

الفصل السابع عشر

الاستجواب

ساق الحرس الإسميرالدة أمامهم وصعدوا بها عدداً من الدرجات وهبطوا أخرى حتى وجدت نفسها في غرفة التعذيب ، ويدعونها تخفيفاً لوقعها على الآذان غرفة الاستجواب ، وحين فتح باب التنور كانت قضبان من الحديد تسد مدخله وكأنه فم تنين أسنانه سوداء يرمي باللهيب ، وعلى ضوء هذه النار اللاهبة وجدت السجينة حولها أدوات مخيفة لا تعرف لأي شيء تستعمل ، ففي وسط الغرفة فراش عريض من الجلد يستعرضه حزام له إبزيم من النحاس ، وكماشات وملاقط وحديد عجلة عربة أمام التنور ، هذا الخليط من الأدوات من مستلزمات غرفة الاستجواب .

وكان يجلس باسترخاء على سرير الجلد الجلاد المدعو بييرا تورتيري وأمامه مساعدان له يرتديان مئزراً من الجلد ويحركان نار التنور .

وأحست البائسة برعب لا يوصف وهي تدخل هذه الغرفة التي وقف في ناحية منها ضابط الاعتقال وفي الناحية الأخرى رجال الهيئة الدينية ، وفي زاوية كان هناك طاولة جلس وراءها كاتب المحكمة ، واقترب الأستاذ جاك شارمولي من الغجرية بابتسامة هادئة وقال :

– يا بنيتي العزيزة هل تصرين على الإنكار ؟

فقالت بصوت خافت :

– نعم ..

– نحن مضطرون في هذه الحالة إلى استجوابك بأكثر قسوة مما نريد ، هل تتفضلين بالجلوس على السرير !

وظلت الإسميرالدة واقفة ، لقد كان هذا السرير الذي تلوّى عليه الكثير من الناس البائسين يخيفها ، ونفذ الرعب

إلى عظامها . كانت واقفة جَزِعةً بلهاء ، وبإشارة واحدة من شارمولي هجم عليها الخادمان وأجلساها على السرير ولم يؤذياها ، ولكن حين لامست السرير تدفق كل دمها إلى قلبها ، وألقت نظرة تائهة على ما حولها ، وسأل شارمولي :

– أين الطبيب ؟

فأجابته ملابس سوداء :

– إني هنا .

وسأل بييرا فجأة :

– من أين نبدأ يا حضرة المدعي العام ؟

فتردد شارمولي لحظة وعلى وجهه ملامح الشاعر يبحث عن قافية لقصيدته وقال :

– لنبدأ بالفلقة .

وشعرت البائسة بأن الله تخلى عنها ونبذها الناس ، فارتمى رأسها على صدرها كأنه عضو منفصل عنها لا قوة له تدعمه ، ودنا منها الجلاد والطبيب معاً ، وبدأ الخادمان

يبحثان في ترسانة الأدوات ، وجذب الجلاد قدميها البضتين اللتين طالما رقصتا على أرصفة باريس ، ورأت من وراء غمامة سوداء الفلقة التي يحملها الجلاد ، ثم أحكم إغلاقها على قدميها ، وأعاد إليها الفزع شيئاً من قوتها .

وصرخت :

– أبعدوها عني أتوسل إليكم .

وارتمت على قدمي المدعي العام ، والفلقة تعض قدميها بأسنانها الحديدية وكأنها نحلة أثقل جناحيها الرصاص .

وبإشارة من شارمولي أعادوها إلى السرير وأحكمت يدان خشنتان الحزام على صدرها . وسألها شارمولي :

– أسألك للمرة الأخيرة أن تعترفي .

– إني بريئة .

فقال شارمولي لبييرا :

– ابدأ !

وشد الجلاد أسنان الحديد ، فأطلقت صرخات بائسة لم تخترع اللغات الإنسانية مفردات للتعبير عنها بعد .

وطلب شارمولي من بيرا أن يتوقف وقال لها :

– اعترفي !

– أعترف .. أعترف بكل ما تريد .. الرحمة !



كانت مخطئة في تقدير قوتها على مواجهة الاستجواب ، لقد كانت حياتها حتى الآن مرحة آمنة وقد هزمتها أول مواجهة للآلام .

فقال لها المدعي العام :

– إن الرحمة الإنسانية تدعوني إلى أن أقول لك إن نتيجة اعترافك هي الموت .

فقالت :

– كم أتمنى الموت .

وارتمت كالميتة منطوية على نفسها وحزام الجلد يقسمها نصفين ، ورفع جاك شارمولي صوته يخاطب الكاتب :

– اكتب أن الفتاة الغجرية قد اعترفت بممارستها أعمال السحر ، وصنعها للأحجبة الشيطانية ، ومشاركتها في فطير السبت ، أجيبي !

فقالت بصوت متماوت :

– نعم

– وهل تعترفين باتصالك بالشيطان الذي أخذ شكل عنـــزة أليفة ؟

– نعم

– وهل تعترفين بأنك في ليلة التاسع والعشرون من آذار الماضي استغثت بالشيطان لقتل الضابط المدعو فوبوس شاتوبرس ؟

ورفعت إلى المدعي العام عينيها الواسعتين وأجابت دون تفكير :

– نعم !

وكان واضحاً أن كل شيء قد تحطم في داخلها .

فقال شارمولي :

– سجل يا كاتب .

ثم توجه إلى الجلادين :

– فكّوا السجينة وخذوها إلى المحكمة .

وحين دخلت قاعة المحكمة شاحبة تعرج ، استقبلتها همهمة فرح شاملة ، وكأنه جمهور يشاهد مسرحية هزلية سوف يعرض عليه آخر فصولها ، وأما القضاة فكان دخولها أملاً لهم في العشاء القريب ، وحتى العنـــزة استقبلتها بثغاء الفرح وأرادت أن تجري إلى صاحبتها ولكنها كانت مربوطة إلى المقعد .

وجرّوا الإسميرالدة إلى مقعدها ، وجلس شارمولي بكامل أُبّهته في مقعده ثم نهض وقال :

– اعترفت الغجرية بكل شيء .

فقال رئيس الجلسة :

– أيتها الغجرية ، هل اعترفت بممارستك السحر وقتلك فوبوس شاتوبرس ؟

وانقبض قلبها وكانت تنتحب بصمت :

– أعترف بكل ما تريدون ، ولكن عجلوا في قتلي .

وأمسك شارمولي دفتراً وجعل يقرأ فيه ، وألقى أمام الحضور مرافعة بليغة لا تخلو من المصطلحات اللاتينية المعبرة .

وانتقل القضاة إلى التصويت فهزوا رؤوسهم بالموافقة ، وكانوا مستعجلين ، فسمعت البائسة الناس همهم وصوتاً عالياً يقول :

– أيتها الغجرية ، في اليوم الذي يقرره مولانا الملك وعند الظهر ستركبين الطُنْبر حافية القدمين والحبل في عنقك حتى بوابة كاتدرائية نوتردام وبيدك رطلان من الشمع ، ومن هناك إلى ساحة غريف حيث ستشنقين حتى الموت ، وعنـــزتك أيضاً ، وتدفعين غرامة مقدارها ثلاثة دنانير ذهبية ، وذلك عقاباً على جرائمك التي اعترفت بها ، وهي ممارسة السحر وقتل السيد فوبوس دي شاتوبرس ، وليرحمك الله !

همست لنفسها : إنه حلم .

وقبضت عليها أيدٍ قوية ، ووجدت نفسها في الزنزانة محرومة من الهواء والشمس ، وكانت تفكر في القبر الذي يضم جثمان حبيبها ، وكانت نادمة لأنه توجه إلى حتفه بقدميه ، فماذا لو لم يواعدها في منـــزل العجوز ! آه .. كم كان وسيماً تلك الليلة بمهمازيه البراقين ! وسقطت على الأرض ووجهها إلى التراب ، ضائعة الآمال .

الفصل الثامن عشر

قلب متقلب

لم يكن فوبوس قد مات ، فالناس من فصيلته تطول حياهم ، وحينما قال فيليب لوهييه محامي الملك لإسميرالدة إنه يموت فكان ذلك خطأ منه أو سخرية بها .

وليس لأن جراحه لم تكن خطيرة ، بل لأنها لم تكن قاتلة ، وقد ظلت حياته في خطر ثمانية أيام ، ولكن فُتوّته تغلبت على الموت ، وحينما كان في المستشفى بين الحياة والموت استجوبه المدعي العام والهيئة الدينية فأتعبه هذا كثيراً ، ولكنه حين استرد وعيه دفع مهمازيه الذهبيين إلى المشرف على علاجه واختفى .

ولم يكن اختفاؤه ليعيق سير القضية ، فقد تجمع لدى القضاة ما يكفي من الأدلة لإدانة الإسميرالدة ، وقد حسبوا فوبوس ميتاً ، وجرى الذي جرى .

وأما فوبوس نفسه فلم يلفت الأنظار إليه ، ولم يذكر شيئاً من هذه الأحداث لأحد ، لأنه لم يشأ أن تلوث سمعته في هذه المحاكمة ، كما أنه أحس إحساساً غامضاً بأنه كان مسوقاً إلى مقابلة الغجرية بقوة سحرية خفية ، ولا يريد أن تفسد العلاقة بينه وبين فلورديلي ، وهي فتاة جميلة وتجلب معها ورطة هامة .

بعد شهرين من تلك الحادثة التي شفي منها تماماً وكاد ينساها تقدم الفارس العاشق إلى باب مسكن آل غوندلورييه وطرقه ، وانتبه إلى تجمع الناس في الساحة أمام باب كاتدرائية نوتردام ، فظنهم يحتفلون بإحدى المناسبات أو أحد الأعياد ، فربط فرسه في المدخل وصعد فرحاً لمقابلة خطيبته .

كانت جالسة مع أمها ، وهي لم تنس بعد زيارة تلك الغجرية مع عنـــزتها وكيف أن العنـــزة رتبت اسم فوبوس بحروف تحملها في صرة من الجلد ، وعجبت لغيبة خطيبها الطويلة ، وحين رأته وجدته مشرق الأسارير ، فاحمرت

خجلاً وازدادت جمالاً بثوبها الأزرق السماوي الذي يتناسب مع جدائل شعرها الذهبي .

جلست قرب النافذة تطرز صورة مرسومة على القماش وبجانبها الضابط يهمس لها بكلمات تعبر عن شوقه إليها ، ورمى ببصره إلى الشارع وقال :

– ما هذا الجمع الغفير من الناس ؟

فقالت فلورديلي :

– سوف يشهّرون بساحرة أمام الكنيسة ثم يشنقونها بعد ذلك .

ولم يهتم الضابط بكلامها لأنه ظن أن قضية الإسميرالدة قد انتهت تماماً .

وسألها :

– ما اسم هذه الساحرة ؟

– لا أعرف .

– وما فعلت ؟

فهزت فلورديلي كتفيها وقالت :

– لا أعرف .

قالت الأم :

– آه يا رب .. لكثرة الساحرات هذه الأيام صاروا يحرقونهن دون معرفة أسمائهن .

وقالت فلورديلي فجأة بصوت خفيض :

– فوبوس .. سوف نتزوج خلال ثلاثة أشهر .. قل لي إنك لم تحب امرأة سواي .

فأجابها وهو يتأمل ملامحها ليدعم صدق لهجته :

– أقسم لك ، يا ملاكي الجميل !

في تلك اللحظة أعلنت ساعة الكنيسة منتصف النهار ، وارتفعت همهمة الاستحسان بين الجمهور .

في تلك العربة المشؤومة ، جلست فتاة وقد رُبطت يداها وراء ظهرها ، ليس عليها سوى قميص طويل ينحسر عن كتفها ، وشعرها الأسود يتناثر حول وجهها ، ومن خلاله

تستطيع أن ترى حبلاً غليظاً قد التف حول عنقها كما تلتف الدودة حول الزهرة ، وتحت هذا الحبل يلتمع عقد من الخرز الأخضر قد تركوه لها تلبية لرغبتها الأخيرة قبل الموت .

قالت فلورديلي بدهشة :

– آه .. يا رب ، انظر يا بن عمي ! إنها تلك الغجرية البشعة صاحبة العنـــزة .

والتفتت إلى فوبوس الذي كان يثبت نظرته على الطُّنْبر وقد شحب وجهه ، فأجابها متلعثماً :

– أي غجرية وأي عنـــزة ؟

وقالت فلورديلي :

– كيف ؟ ألا تذكرها ؟

– لا أعرف عمن تتكلمين !

وخطا خطوة ليدخل إلى القاعة ، فقالت كالآمرة له :

– لنبق هنا حتى النهاية .

واضطر الضابط إلى البقاء . كان الطُّنْبر قد دخل الساحة وتوقف أمام باب الكاتدرائية ، وخيّم الصمت على الحاضرين ، حينئذٍ ، انفتحت درفتا الباب الضخم ولهما صرير مرتفع ، وظهرت كاتدرائية معتمة لا تضيئها سوى بضع شمعات حتى المذبح الرئيسي ، وساعدها الخدم على النــزول من الطُّنْبر ، ومشت حافية القدمين وقلبها يدق : فوبوس . وأطلق قيد العنــزة أيضاً ، فبدأت تثغو وهي تجري وراء صاحبتها ، ووصلت الغجرية حتى درجات الكنيسة والحبل الذي في عنقها يتدلى وراءها .. توقف الإنشاد في الكنيسة ، وتحركت الشموع في الظلام ، ومعها صليب ذهبي كبير يحرسه الجنود السويسريون برماحهم الطويلة وملابسهم الملونة ، وتوجه الموكب نحو المحكوم عليها بالإعدام ، فنظرت إليه ، ولكن بصرها توقف عند الرجل الذي يمشي مباشرة بعد حامل الصليب الذهبي ، وهمست وقد ارتعدت فرائصها :

– إنه هنا هو أيضاً .. القس !

وكان رئيس الأساقفة وقد ارتدى ثياباً مزينة بالخيوط الفضية زادت من اصفرار وجهه حتى لتحسبه أحد التماثيل الرخامية .

اقترب رئيس الأساقفة منها بهدوء ثم قال بصوت مرتفع : أيتها الفتاة .. هل طلبت من الله المغفرة لخطاياك ؟

فنظرت إليه بثبات ولم تجبه ، فرفع يده فوق الغجرية ونطق عبارة باللاتينية يختم بها هذه الطقوس الكئيبة ، وهي الإشارة المتفق عليها بين القس والجلاد .

حين توجهت المسكينة إلى الطُّنْبر لتمضي نحو المحطة الأخيرة ، أحست برغبة في الحياة ، فرفعت عينيها الذابلتين إلى السماء والشمس وإلى السحب البيضاء ، ثم خفضتهما لتتأمل ما حولها من أرض وناس وبيوت ..

وجذب الجلاد يديها ليربطهما فندت عنها صرخة مذعورة أو صرخة فرحة . هناك في الشرفة في زاوية الساحة

رأت صديقها .. رأت فوبوس ! لقد كذب القاضي ، وقد كذب القس ، إنه هو لا ريب في ذلك ، إنه هناك ممشوق القامة جميل الوجه في بذلته العسكرية ، وعلى رأسه قبعة الريش وسيفه إلى جانبه .

فصرخت :

– فوبوس ، فوبوس !

وأرادت أن تمد إليه يديها ولكنهما مربوطتان ، ورأته يتكلم مع فتاة بجانبه ، ثم اختفى كلاهما وراء زجاج النافذة .

وصرخت بملء رئتيها :

– فوبوس .. هل أنت هنا ؟

ودارت في رأسها أفكار مخيفة ، لقد لاقت العذاب والذل والمهانة لأنها قتلت فوبوس ، ولكن هاهو ذا أمامها ، ولم يكلّفْ نفسَه عناء المثول في المحكمة لإثبات براءتها ، هذا أقوى مما تحتمله ، وسقطت على حجارة الشارع لا حراك بها .

قال شارمولي :

– هيا .. احملوها ولننته من هذا الأمر !

لم يلاحظ أحد بين التماثيل المنحوتة وجهاً شبيهاً بمثل هذه الوجوه الشائهة التي أقيمت منذ ستمائة سنة ، وقد مدّ عنقه ونظر بعينه الوحيدة يراقب ما يجري في الساحة منذ منتصف النهار .

كان قد ربط حبلاً متيناً ذا عقد بأحد الأعمدة العلوية وتركه يتدلى قريباً من بوابة الكاتدرائية الجانبية ، وحين سمع الأمر الذي أصدره شارمولي للجلاد نزل على الحبل وقد أمسك به بيديه وقدميه وركبتيه ، وانحدر على واجهة الكنيسة ، كأنه قطرة ماء تسيل على زجاج نافذتها .

وجرى نحو الجلادين بخفة قط سقط من أحد الأسطحة وسدد إليهما لكمة قوية من يده الضخمة ، وحمل الفتاة فوق رأسه وجرى بها إلى الكنيسة وهو يصرخ بصوت هائل : اللجوء !



وردد وراءه الجمهور :

– اللجوء !

وتعالى تصفيق عشرة آلاف يد ، فالتمعت عين كازيمودو فرحاً وافتخاراً .

عادت الفتاة إلى وعيها وفتحت عينيها فرأت كازيمودو ، فأغلقتهما وكأنما أفزعتها رؤية منقذها .

وظلّ الجميع ذاهلين : شارمولي والجلادون والحراس ، والمعروف أن كنيسة نوتردام حرم لا يمكن اجتيازه ، وتنتهي

سلطة العدالة عند عتبتها ، ولا يمكن القبض على إنسان لجأ إليها .

توقف كازيمودو تحت البوابة الكبيرة حاملاً الفتاة بيديه الخشنتين ولكنه يحملها بحذر كمن يحمل زهرة يخشى عليها الذبول .

وخفض إليها عينه العامرة بالحب والعطف والحنان والألم ، ثم رفعها عنها لامعة بالشرر .

كانت النساء يضحكن ويبكين ، والناس قد اجتاحتهم عاصفة من الإعجاب ، فقد كان كازيمودو الآن جميلاً حقاً ، جميلاً بقوته وشهامته وهو اليتيم الأحدب المعوج الساقين .

كان واقفاً يتأمل هذا الجمع الذي نبذه فعاد إليه مرهوب الجانب ، وانتزع من عدالته هذه الفريسة ، وإذا هذه النمور الضارية تعضّ على الخواء ، وينهزم هؤلاء القضاة والجلادون ، وتنكسر قوة السلطة أمام سلطان الله .

بعد دقائق من النصر اختفى كازيمودو بمن يحمل داخل الكنيسة ، وهلل له الجمهور طويلاً ، ولكنه لم يعد إلى الظهور .

وفجأة رأوه في أعلى الكنيسة حاملاً الغجرية بين يديه وهو يجري ويصرخ كالمجنون :

– اللجوء .. اللجوء ..

وتعالى تصفيق الحاضرين .

أخيراً ظهر مرة ثالثة في قمة برج النواقيس وكأنه يعرض بافتخار على باريس كلها المرأة التي أنقذها بصوته الضخم الأجش الراعد الذي لم يسمع من قبل ، يصرخ ثلاث مرات وكأنما لتسمعه النجوم :

– اللجوء .. اللجوء .. اللجوء ..

وأجابه الجمهور :

– نويل .. نويل ..

الفصل التاسع عشر

حق اللجوء

كانت أماكن اللجوء منتشرة في العصر الوسيط سواء في قصور الملوك أو مساكن الأمراء والكنائس الخاصة ، وقد تكون المدينة كلها مكاناً للجوء إذا نقص عدد سكانها ، وأريد أن يعمرها الناس ، وقد جعل لويس الحادي عشر باريس ملجأ سنة 1467 .

حينما يدخل المجرم الملجأ فلا يصاب بسوء ، ولكن عليه ألا يغادر فآلات التعذيب والمشانق والحرس يتربصون به كما تحيط أسماك القرش بالسفينة ، ولذلك يعد الملجأ سجناً مثل سواه ، وقد يُخترَق هذا الملجأ بقرار من المجلس النيابي ولكنه أمر نادر جداً .

وكان لكل كنيسة حجرة مخصصة للاجئين ، وفي كاتدرائية نوتردام تقع حجرة اللجوء في الناحية المطلة على الأعمدة الداخلية .

وإليها لجأ كازيمودو بعد صعوده إلى الأبراج .

ولم تكن الفتاة واعية لما يجري حولها بل كانت تحس كأنها ترتفع في الهواء وتطير ، وأن شيئاً ما يحلق بها فوق الأرض ، وحينما وضعها كازيمودو في الحجرة ونزع عنها قيودها ، عاد إليها الإحساس بما حولها ، ووجدت نفسها في نوتردام ، وتذكرت أن يدين قويتين قد انتزعتاها من الجلاد ، وأن فوبوس حي ، وأن فوبوس لا يحبها ، وقد اصطرَعَتْ هاتان الحقيقتان في ذهنها .

وأحست بطعم المرارة في فمها ، فالتفتت إلى كازيمودو الواقف أمامها يرعبها بقامته الهائلة وسألته :

– لماذا أنقذتني ؟

فجعل يتأملها حائراً وكأنما يداول سؤالها في فكره .

فأعادت عليه القول ، فنظر إليها نظرة عامرة بالحزن وهرب ، وبقيت ذاهلة .

بعد لحظات رجع كازيمودو ومعه صرة رماها أمامها وابتعد ، كانت بعض الملابس التي تصدقت بها امرأة على الكنيسة ، وهي ثوب أبيض وشال أبيض أيضاً ، فلبسته الإسميرالدة .

ورجع مرة ثانية يحمل سلة تحت إبطه ، وفراشاً تحت إبطه الآخر ، في السلة زجاجة ماء وخبز وبعض المأكل ، ووضع السلة على الأرض وقال : كلي .

ومد الفراش على الأرض وقال : نامي .

لقد آثرها بطعامه وفراشه .

ورفعت الغجرية عينيها لتشكره ، ولكنها لم تستطع النطق بكلمة ، إن المسكين بشع المنظر حقاً ، فخفضت رأسها وارتعشت خائفة ، فقال لها :

– لقد أخفتُك .. إنني بشع أليس كذلك ؟ لا تنظري إلي ، اسمعيني فقط ، ابقي هنا طول النهار ، وأما في الليل فتجولي في الكنيسة كما تشائين ، ولكن لا تخرجي منها لا نهاراً ولا ليلاً وإلا شنقوك ، وإذا قتلوك أموت .

أثر فيها كلامه فرفعت رأسها لتجيبه فوجدته قد اختفى ، وظلت وحيدة تفكر في كلام هذا المخلوق الشبيه بالوحش وبصوته الأجش العامر بالحنان .

وتفحصت حجرتها ، كانت حجرة صغيرة ذات نافذة مدورة وباب منخفض وتطل منها على أسطحة باريس كلها .

كانا المنظر كئيباً بالنسبة إلى هذه الغجرية البائسة المهددة بالموت ، وهي اللقيطة التي لا أهل لها ولا سكن ولا وطن .

وفيما كانت غارقة في هذه التأملات المؤلمة اندس رأس مُشعِر بين يديها ، فارتعدت فزعة وإذا هي جالي التي هربت على إثرها ، فأمطرتها الفتاة بالقبل وقالت لها :

– آه يا حبيبتي .. لقد نسيتك يا جالي ولكنك تذكرتني ، لستِ جاحدة يا جالي ، فأنت تفكرين بي على الدوام .

وأحست بالوقت نفسه كأنما أزيح ثقل عن صدرها وأفسح لها المجال للبكاء ، فانسكبت من عينيها الدموع غزيرة وسالت معها مرارة آلامها .

الفصل العشرون

دودة الأرض ونجمة السماء

من الغد استيقظت وقد أدهشها أن تنام ، فهي لم تعرف النوم منذ زمن طويل ، كانت أشعة الشمس تتسرب من النافذة فأيقظتها ، ولمحت في النافذة شيئاً رهيباً ، إنه وجه كازيمودو البائس ، فأغمضت عينيها دون إرادتها ولكن دون جدوى ، إذ كانت تتخيل صورته من وراء جفنيها المغمضين ، وسمعت صوته الأجش يقول بحنان :

– لا تخافي .. إني صديقك ، جئت لأراك نائمة ، هل تؤذيك رؤيتي لك وأنت نائمة ؟ وهل يضرّك أن تغلقي عينيك بحضوري ؟ سأذهب الآن ، إني وراء الجدار ، افتحي عينيك الآن .

كان شيئاً ما يتجاوز الألم في هذا الصوت الحنون ، ففتحت الغجرية عينيها ولم تجده فأطلت من النافذة لتراه

ملتصقاً بالحائط مستسلماً لأحزانه ، وبذلت جهداً لتتغلب على قرفها وقالت له بهدوء :

– تعال !

وفهم من حركة شفتيها أنها تطرده ، فنهض يجر قدميه ورأسه على صدره ، ولا يجرؤ على النظر إليها ، فصرخت ليسمعها : تعال هنا !

فتابع مشيته ، فخرجت من الحجرة وأمسكت بذراعه .

حين أحس بها ارتجف جسده كله ، وحينما رآها تدعوه إليها التمع وجهه بالفرح والحنان ، وأرادت أن يدخل الحجرة لكنه أصرّ على البقاء أمام عتبتها وقال :

– لا .. لا .. لا يدخل البوم عش القُبّرة .

فجلست على فراشها وعنزتها راقدة تحت قدميها ، وجعلت تتأمله وهو ينظر إليها ولا يقول أحدهما شيئاً .

وقطع السكون أولاً فقال لها : هل طلبت مني الدخول ؟

فقالت له : نعم . وأشارت برأسها ففهم إشارتها وقال :

– للأسف .. إني .. إني أصم .

فقالت بلهجة الندم : يا للمسكين !

– نعم إني أصم ، ولكن كلميني بالإشارات ، ومعلمي يتكلم معي بهذه الطريقة . فابتسمت وقالت : قل لي إذن ، لِمَ أنقذتني ؟

وراقب حركة شفتيها بانتباه وأجاب : لقد فهمت ، هل نسيت ذاك الشقي الذي حاول اختطافك ذات ليلة ، ذاك الشقي الذي سارعتِ إلى نجدته من الغد على منصة التعذيب ؟ قطرة ماء وشيء من الحنان ، هل تكفي حياتي للوفاء بهما ؟ لقد نسيتِ ذلك الشقي أم تذكرينه ؟

كانت تصغي إليه والحزن يسكنها ، وترقرقت في عين قارع النواقيس دمعة ولكنها لم تنحدر ، واستأنف كلامه :

– الأبراج عالية وإذا سقط المرء منها مات قبل أن يبلغ أرض الشارع .

وحين ترغبين في أن أرمي نفسي لا تنطقي بكلمة ، إشارة منك تكفي لأحلق في الفراغ .



الفصل الواحد والعشرون
غرينغوار وأفكاره العظيمة

منذ أن رأى بيير غرينغوار تطور هذه القضية وأن فيها حبلاً ومشنقة وسواهما من المنغصات في حياة الشخصيات الرئيسية لهذه الكوميديا ، لم يعد يفكر في التدخل فيها ، وقد تأكد له أن المجرمين الذين يعيش معهم هم خير رفاق له في باريس ، وما زالوا يهتمون بمصير الغجرية ، وعرف منهم أن زوجته ذات الجرة المكسورة قد لجأت إلى كاتدرائية نوتردام وأنها هانئة في حياتها .

ولكن لم يخطر له أن يذهب لزيارتها ، كان يفكر بالعنـــزة أحياناً ، هذا كل شيء .

ذات يوم ، كان واقفاً في شارع (سان جرمان ديكسرواه) إذ أحس بيد ثقيلة تمسك بكتفه ، التفت ، إنه

صديقه ومعلمه السابق السيد رئيس الأساقفة ، ظل رئيس الأساقفة ساكتاً بضع لحظات كان غرينغوار يتأمله خلالها .

ووجد أن الدون كلود قد تغير كثيراً ، فهو شاحب كأنه نهار شتائي ، عيناه كئيبتان وشعره أبيض ، وقطع القس الصمت بصوت وقور :

– كيف حالك يا أستاذ بيير ؟

– صحتي لا بأس بها إجمالاً .

وحدق القس في عينيه وقال :

– إذن لا شيء يشغلك يا أستاذ بيير ؟

– لا والله .

وابتسم القس ابتسامة مرة ترتجف على طرف فمه :

– أنت سعيد إذن ؟

– نعم .

– ولا تتمنى شيئاً ؟

– لا .

– ولا تندم على شيء ؟

– لا أتمنى ولا أندم ، عيشتي هانئة .

– وكيف تكسب لقمة عيشك ؟

– ما زلت أنظم بعض الملاحم والمسرحيات ، ولكن موردي الرئيسي من تلك المهنة التي تعرفها ، أرفع الكراسي بأسناني .

– مهنة لا تليق بفيلسوف مثلك .

– إنها نوع من التوازن .

سكت القس برهة ثم قال :

– بيير غرينغوار ماذا فعلت بتلك الراقصة الغجرية ؟ أليست زوجتك ؟

– نعم تزوجتها بجرة مكسورة لمدة أربع سنوات .

– حسناً فماذا فعل بها الزمان ؟

– أظنهم شنقوها .

– هل تظن ؟

– لا ، بل أعتقد ذلك ، حينما أبصرت حبل المشنقة انسحبت من اللعبة .

– هذا كل ما تعرفه ؟ اعلمْ إذن أنها لجأت إلى كنيسة نوتردام ، وإني مسرور لذلك ، ولم أعرف هذا لولا أني وجدت العنـــزة وقد هربت معها ، هذا كل ما أعرفه .

وارتفع صوت القس الذي ظل حتى الآن هادئاً :

– وأزيدك معرفة بأنها ستشنق بعد ثلاثة أيام ، فقد أصدر المجلس النيابي قراراً باستردادها من الكنيسة .

وكان غرينغوار على قدر من الذكاء يكفي لكي يدرك أن القضية اتخذت مساراً خطراً ، ولم يأسف لأنه لم يكن ضالعاً فيها ، وأحس تجاه القس – هذا الشيطان في ثياب مقدسة – بنوع من العداء الممزوج بالرعب .

واستنجد بكل معارفه الفلسفية ليطرح هذا السؤال بلهجة استعلاء :

– وهل العنـــزة مع الفتاة ؟

– نعم ، ليأخذها الشيطان .. وما أهمية ذلك ؟

كان لا يفكر ظاهراً إلا في العنـــزة الصغيرة ، ولكن خطرت له فكرة كاد يرقص لها لولا هذا القس الذي يرميه بنظراته .

وحين غادر القس ساءل نفسه عما دفع هذا الشيطان إلى إخباره بأن الفتاة ستشنق بعد ثلاثة أيام ، أليس هو الدوق فرولو الذي سعى للحصول على هذا الأمر من المجلس النيابي ؟

وهاهو الآن يسعى لإنقاذها ، أو يحثه على إنقاذ الفتاة التي أنقذت حياته هو . وتطورت في ذهنه خطة وهو في طريقه إلى مملكة اللصوص .

الفصل الثاني والعشرون

ليلة تحت السلاح

كان سكان (ساحة العجائب) من القتلة واللصوص ينصرفون في هذا الوقت من الليل إلى صخبهم ولهوهم ومجونهم .

ولكن لو أتيح لأحد الدخول إليها لعجب من الهدوء السائد فيها ، ولرأى هؤلاء القتلة واللصوص قد تفرقوا جماعات يتهامسون فيما بينهم وكأنهم يعدون لأمر خطير .

ونستطيع أن نميز بين هؤلاء ثلاث مجموعات التفت حول ثلاثة أشخاص يعرفهم القارئ : الأول ماتياس سبيكالي ملك الغجر بملابسه الغريبة وأصابعه التي تلتمع فيها الخواتم الذهبية ، والثاني صاحبنا ملك تاونس المدجج بالسلاح ، والثالث كلوبان تريفو الذي يوزع بصوت وقور ترسانةَ الأسلحة التي نهبها من مكان لا يعلمه سوى الله .

وكان هؤلاء اللصوص والقتلة يختارون أسلحتهم ويهزونها في الهواء ، حتى المقعدين منهم أو الذين بترت سيقانهم كانوا يمسكون بأسلحتهم ويتدحرجون تحت أقدام أصحابهم كأنهم الصراصير الضخمة .

وأما في ناحية بعيدة عن هؤلاء ، فقد التفّت عصابة من الشباب المرحين حول فتى أشقر الشعر محمر الأنف تسلح تسليحاً جيداً يمازحونه ويضحكون لنكاته .

في زاوية منعزلة من حانة الساحة قرب المدفأة جلس فيلسوف يتأمل ورجلاه في الرماد وعيناه إلى اللهيب ، إنه بيير غرينغوار .

صاح كلوبان ترويفو بحرافيشه :

– هيا . أسرعوا .. خذوا أسلحتكم .. سننطلق بعد ساعة .

وصرخ ذلك الفتى ذو الشعر الأشقر :

– نويل .. نويل .. أنا سيد القتلة ، اسمي يوهان فرولو من أشراف القوم ، سوف تكون غزوة رائعة ، نحن رجال شجعان فلنحاصر الكنيسة ولنكسر أبوابها ، ولننقذ الفتاة الحسناء من براثن القضاة ، نفذوا هذا في لمحة عين ، إن قضيتنا عادلة ، انهبوا الكنيسة .. وانتهى الأمر ، سنأخذ كازيمودو معنا .. هل تعرفون كازيمودو يا إخوتي ؟ هل رأيتم كيف عذبوه يوم الاحتفال ؟

انتهى كلوبان تريفو من توزيع الأسلحة ، فدنا من غرينغوار الذي كان هائماً في أحلام يقظته وسأله :

– بأي شيء يفكر صاحبي ؟

فأجاب غرينغوار :

– لا أدري ، لقد وجدت آلاف الأشياء في هذه النجوم التي تطرز عمق المدفأة السوداء .

وخرج كلوبان ونادى بصوت راعد :

– منتصف الليل !

سارع حينئذٍ الجميع في الخروج إلى الساحة وقد ارتفع صليل أسلحتهم ، فوقف كلوبان فوق المصطبة وصاح :

– رصوا الصفوف .. أيها الحرافيش !

فساد الهدوء واصطف الجميع في صفوف متراصة .

وأضاف :

– ستعبرون الآن باريس دون أن تلتفتوا إليكم الأنظار ، وكلمة السر هي (شعلة العبث) ولا تنيروا المشاعل إلا أمام نوتردام .. هيا سيروا !

الفصل الثالث والعشرون

الهجوم

لم ينم كازيمودو تلك الليلة وقد أنهى جولته التفقدية في الكنيسة ، فأحكم إغلاق الأبواب كلها ودعّمها بمتاريس الحديد حتى بدت كأنها أصلب من الجدران ، ومرّ به كلود فرولو وكان مهموماً أكثر من المعتاد ، وقد تعود كازيمودو أن يضربه القس أو يسيء إليه ولكنه يخضع له باستسلام وإخلاص .

ألقى كازيمودو نظرة على النواقيس التي طال إهماله لها ، ثم صعد قمة البرج الشمالي واتكأ عليه وجعل يتفرج على باريس ، كانت الليلة مظلمة ، ولم تكن باريس في ذلك العهد مضاءة ، فكأنها بحر من البيوت المتراكمة يقطعها نهر السين بلمعانه الرمادي ، ولم يلمح كازيمودو سوى نور بعيد يلتمع من ناحية باب سان أنطوان ، ولا ريب أن هناك بعض

الساهرين . أحس قارع النواقيس بشيء ما في داخله يقلقه ولا يعرف له تفسيراً ، وقد أخذ حذره منذ عدة أيام ، إذ لاحظ أن بعض رجال الشرطة يطوفون حول الكنيسة ولا يرفعون أعينهم عن ملجأ الفتاة ، وكأنما بينهم وبينها ثأر قديم . ولا بد أن يفعلوا شيئاً للأخذ به . وظلّ فوق البرج يقظاً .

فجأة أحس كأن رصيف النهر يموج بأشباح غامضة .

ثم تحولت إلى شارع بارفيس المؤدي إلى واجهة نوتردام ، ولم يستطع أن يميز عددهم في الظلام ، وتأكد له أنهم لا يحدثون ضجة لأن نوافذ البيوت المطلة على الساحة ظلت مغلقة ، ولكنهم يتدفقون إلى الساحة بانتظام ، والتمع النور فجأة ، وبلحظة واحدة اشتعلت سبعة أو ثمانية مشاعل في وقت واحد ، ثم تنقلت فوق الرؤوس يتراقص لهيبها .

استطاع كازيمودو أن يميز حينئذٍ جمهوراً غفيراً من الرجال والنساء في أسمالهم البالية ، مسلحين بالمعاول

والفؤوس والمناجل والمذاري تلتمع نصالها تحت أضواء المشاعل . تناول كازيمودو فانوسه وهبط إلى المصطبة ما بين الأبراج ليرى عن كثب ويقدّر وسائل الدفاع .

وصل كلوبان ترويفو أمام بوابة نوتردام الكبرى وقد رتب كتيبته فصائل وصعد إلى الحاجز المرتفع في الساحة وصاح بصوت أجش :

– أتوجه إليك ، لويس دي بومون ، أسقف باريس والمستشار في محكمة المجلس ، أنا كلوبان ترويفو ملك تاونس وأمير الحرافيش وأسقف المجانين وأقول لك : إن أُختنا التي أُدينتْ بالسحر ظلماً قد التجأت إلى كنيستك ، فأنت مسؤول عن أمنها وسلامتها ، ولكن محكمة المجلس النيابي ستستردها بموافقتك لتشنقها غداً في ساحة كريف ، لذلك نطالبك بأن تعطينا الفتاة إذا أردت إنقاذ كنيستك وإلا انتزعنا الفتاة ونهبنا الكنيسة ، وعلى هذا فإني أغرس رايتي هنا ، والويل لك يا أسقف باريس !

لم يسمع كازيمودو للأسف هذا الكلام الذي يدل على الكبرياء المتوحشة ، وقدّم أحد المجرمين الراية لكلوبان فغرسها في بلاطات الشارع ، وكانت عبارة عن مذراة ذات سنين تتدلى منها جيفة حيوان ، ثم التفت ملك تاونس إلى كتيبته وأجال بصره فيها وصاح :

– تقدموا يا أبنائي .. فصيلةَ المطارق !

فخرج من بين الصفوف ثلاثون رجلاً مفتولي العضلات ، ومعهم المطارق والكماشات ، وعلى أكتافهم قضبان الحديد ، وجعلوا يعالجون باب الكنيسة الرئيسي بالكماشات والرافعات ، ولكن الباب صمد أمامهم . صاح كلوبان :

– تشجعوا يا رفاق ! وقطع كلامَه ضجّة هائلة ، فقد سقط عمود ضخم من أعلى ، فأصاب عشرة من المجرمين على درجة الكنيسة ، ثم قفز على بلاط الطريق كأنه صوت

مدفع وهرس من جمهرة الآخرين أيادي وأذرعاً وتعالت صرخاتهم .

وما إن زالت عن الملك تاونس الدهشة حتى صرخ بأتباعه :

– الخبثاء يدافعون .. إلى الأكياس .. إلى الأكياس .

وأخرج الحرافيش من أكياسهم الحجارة وبدؤوا يقذفون بمقاليعهم واجهة الكنيسة .

ونهض على هذه الأصوات سكان البيوت المجاورة ، وفتحت النوافذ وأشعلت الشموع ، فصاح كلوبان :

– اقذفوا النوافذ !

لم يجرؤ الحرافيش على مهاجمة الباب الرئيسي وكانوا يراقبونه من بعيد ، ولم يظهر أحد من الكنيسة ، وتجمد المهاجمون لأمر لا يعلمونه ، وحثهم كلوبان :

– المطارق .. المطارق .. اخلعوا الباب !

فلم يستجب له أحد ، فقال كلوبان :

– أيها الرجال هل تخافون من عارضة خشبية ؟

فقال أحد الحدادين :

– لسنا خائفين من العارضة .. ولكن الباب مدعم بالقضبان الحديدية ولا تؤثر فيه الكماشات .

فسأله كلوبان :

– وكيف نخلعه إذن ؟

– يلزمنا عمود برأس كبش !

فأسرع ملك تاونس بشجاعة إلى الدعامة التي سقطت عليهم ووضع رجله فوقها وقال :

– هاهو رأس الكبش قد أرسله الخبثاء إلينا .

ورفع يده بالتحية إلى ناحية الكنيسة :

– شكراً لكم يا خبثاء !

وكان لكلامه تأثير في أصحابه ، فحمل مائتا رجل العمود كأنه ريشة خفيفة ، وجعلوا يصدمون به باب الكنيسة ، فيصدر عنه صوت كالطبل يتردد صداه في أرجاء

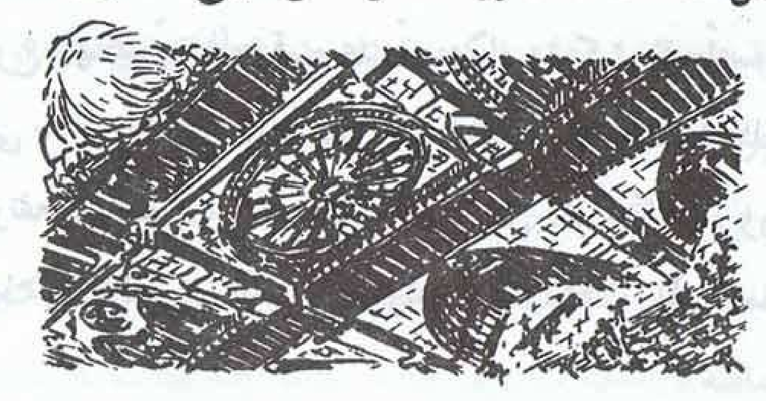
الكنيسة ، في تلك اللحظة أمطرهم حجارة ضخمة تساقطت على المهاجمين .

وصاح يوهان :

– هل سقطت حجارة الأبراج فوقنا ؟

ولا شك أن القارئ قد عرف أن كازيمودو وراء هذه المقاومة كلها ، وقد خدمته المصادفة ، إذ أن البرج الأوسط كان قيد الإصلاح وانتشرت حوله الحجارة الضخمة والدعامات الخشبية وقطع الرصاص .

ووجد كازيمودو فيما حوله ترسانة كاملة يحاربهم بها ، فحمل الدعامة الهائلة ورماها من أعلى البرج كما رأينا .



ورأى كازيمودو المهاجمين يتفرقون كما لو نفخت في حفنة رماد ، واستغل تراجعهم فنقل إلى حافة الحائط الأعلى الحجارة والرمل وحتى أدوات البناء بانتظار المعركة القادمة ، وحين رآهم يهاجمون الباب برأس الكبش رمى عليهم ما جمعه على الحافة فظنوا أن الكنيسة تنهار فوق رؤوسهم .

لاحظ كازيمودو أن سلاحه هذا لا يكفي لصد المهاجمين فتلفت حوله يتفقد ما يملكه من ذخيرة ، فوجد كتلاً من الرصاص الذي تركه العمال لإصلاح أسطحة الكنيسة ، فأشعل ناراً كبيرة أمام المزراب وذوب فيها كتل الرصاص ، ثم دفعها بعمود داخله فتساقطت مطراً ذائباً من اللهيب فوق جموع المهاجمين ، فأحرقت عدداً منهم ، وتركت ثقوباً سوداء على بلاط الشارع كأنها مطر أسود فوق أرض غطاها الثلج ، وارتفعت أصوات الاستغاثة والذعر من كل مكان ، ورمى المهاجمون العمود الذي يحملونه فوق الجثث المتراكمة ،

وهرب الشجعان والجبناء معاً وأصبحت الساحة خالية منهم .

وعضّ كلوبان على كفيه كالمسعور :

– يستحيل علينا الدخول .

وهمهم الغجري ماتياس هنغاري :

– إنها كنيسة عتيقة مسحورة .

وصرخ ملك مصر :

– ألا ترون هذا الشيطان الذي يرقص أمام النار ؟

قال كلوبان :

– ألا توجد وسيلة لكسر هذا الباب ، يجب أن نجد نقطة ضعف في هذه الكنيسة المسحورة ، ثقباً في الجدار أو حجراً متزعزعاً أو شيئاً ما .

وسأل كلوبان :

– أين التلميذ الصغير يوهان الذي كان شديد الحماسة ؟

فأجابه أحدهم :

– لقد مات لا ريب ، فنحن لا نسمع ضحكاته .

– والأستاذ بيير غريغوار ؟

فقال أندراي الأحمر :

– لقد اختفى حين وصلنا إلى جسر الشانجور .

فخبط كلوبان الأرض بقدمه :

– هو الذي حرضنا على الهجوم ثم تخلى عنا .. الجبان الثرثار .

وناداه أندراي الأحمر :

– سيد كلوبان .. هاهو التلميذ يوهان .

وكان يوهان يجري وهو يسحب وراءه سلماً طويلاً ، وحين اقترب من كلوبان هتف : النصر لنا .

فسأله كلوبان : ماذا نفعل بالسلم ؟

– سأقول لك يا ملك تاونس ، أترى هذا الصف من التماثيل ذات الملامح البلهاء تحت البوابات الصغيرة ؟ إن في

آخر الممر باباً لا يغلق أبداً ، وحين أصعد إليه بالسلم أدخل الكنيسة .

– إذن دعني أصعد أولاً .

– لا يا رفيق ، السلّمُ سُلّمي .

فقال كلوبان :

– ليخنقك الشيطان ، لا أريد أن أكون تابعاً لأحد .

– إذن ابحث عن سلم آخر .

وجعل يوهان يجري إلى الساحة ويسحب السلم وراءه منادياً : إلي يا أولاد .

ورُفع السلم بلمح البصر وأسند إلى الجدار فوق إحدى البوابات الجانبية ، وصعد يوهان متأنياً يمسك السلم بيد ومقلاعه بيد أخرى ، وتبعه المجرمون ، كل واحد منهم على درجة من درجات السلم ، فلو نظرت إليهم من بعيد حسبتهم ثعباناً يتسلق الكنيسة .

وصل يوهان إلى السطح وخطا إليه وارتفعت تصفيقات الحرافيش ، وحين ظن نفسه سيد هذه القلعة أطلق صرخة انتصار ، ولكنه توقف فجأة وقد سيطر عليه الخوف إذ رأى خلف تمثال أحد الملوك كازيمودو مختبئاً وعينه تقدح بالشرر .

ما كادت تطأ قدم يوهان السطح حتى هجم كازيمودو على السلم ، فأمسك به من طرفيه ورفعه إلى أعلى ثم رماه بعيداً في الساحة ، كأنما تلبسته قوة خارقة لقوى الإنسان ، وتحولت صرخات الاستحسان إلى نداءات الاستغاثة ، وقد سقط السلم وتحطم بمن عليه .

ووقف كازيمودو يتفرج على هذا المشهد بهدوء .

أما يوهان فرولو فقد وجد نفسه في موقف حرج ووقف وحيداً في الردهة يفصله عن أصحابه حائط علوه عشرون قدماً ، وحينما كان كازيمودو منشغلاً برمي السلم ، جرى يوهان إلى الباب فوجده مقفلاً ، لقد أغلقه كازيمودو وراءه ،

فاختبأ وراء أحد التماثيل لا يجرؤ على التنفس ، وهو يرقب الأحدب المتوحش بنظرات مذعورة .

لم يهتم الأحدب به بادئ الأمر ، ثم نهض فجأة وتقدم إليه ، فتناول يوهان مقلاعه وهتف به :

– سوف أبدل اسمك .. لن ينادوك الأعور بل الأعمى .

ورمى حجراً فأصاب كتف كازيمودو فجرحه جرحاً خفيفاً ، فجذب كازيمودو المقلاع من يده وكسره على ركبتيه ، ثم قفز كالجرادة وسقط على يوهان وألصقه بالحائط ، ثم أمسك بيد واحدة يدي يوهان معاً ، وبدأ ينــزع عنه سلاحه ، السيف ، الخناجر ، الخوذة ، والترس ، والدرع . وكان يرميها تحت قدميه واحداً بعد الآخر ، ولكن يوهان لم يفزع منه وكأنما استسلم لمصيره فبدأ يضحك منه ويسخر من عاهته ، فضرب كازيمودو به الحائط فقتله .

حينئذٍ ارتفعت الأصوات من الأسفل تنادي بالويل وتدعو إلى الانتقام ، واختلطت أصوات هؤلاء الحرافيش ،

وكلٌّ يتكلم بلغة بلده ولهجة قومه ، وكأن مصرع يوهان قد بث فيهم روح النضال والغضب لعجزهم عن اقتحام الكنيسة يحميها هذا الأحدب .

وتنادَوْا فجيء بالسلالم وأُسْنِدت إلى الجدران من كل النواحي ، وتضاعف عدد المشاعل يحملها رجال مصممون على الموت ، وكانت الساحة قد أضيئت بآلاف المشاعل وزالت حجب الظلام ، وانعكس النور على صفحة السماء وظهر البرجان الكبيران لكاتدرائية نوتردام كأنهما جبلان يبرزان وسط الظلام ، وبدت المدينة كأنها استيقظت من غفوتها ، وسعت إلى الكنيسة بأصوات التهديد والوعيد والسباب . ورأى كازيمودو هذا المد من الأعداء فارتجف خوفاً على الغجرية ، وشاهد الوجوه الغاضبة تقترب من موضعه شيئاً فشيئاً ، فطلب من الله معجزة وهو يقلب كفيه يائساً .

الفصل الرابع والعشرون

كلمة السر

هبط غرينغوار شارع سانت أنطوان بسرعة حصان هائج ، ووصل إلى باب بودييه ومشى مباشرة إلى الصليب الحجري القائم وسط الساحة لمقابلة الرجل الجالس على الدرج مرتدياً ملابس سوداء .

قال غرينغوار :

– أهو أنت يا أستاذ ؟

– لقد أحرقت أعصابي يا غرينغوار ..

وأعلن المنادي في ساحة سان جيرفيه الواحدة والنصف صباحاً .

– ليس الذنب ذنبي وإنما هو ذنب الحراس ، لقد نجوت بأعجوبة وقد كدت أشنق ، إنه قدري .

– هيا لنسرع ، هل تعرف كلمة السر ؟

– نعم إنها (شعلة العبث) .

– ولولاها لا نستطيع الدخول إلى الكنيسة ، لأن القتلة سدوا كل الطرقات ، ولكنهم يلاقون المقاومة لحسن الحظ ، لعلنا نصل قبل فوات الأوان .

– نعم يا أستاذي ، ولكن كيف سندخل إلى نوتردام ؟

– لدي مفاتيح الأبراج .

– وكيف سنخرج منها ؟

– خلف السياج باب صغير يؤدي إلى الباحة ومنها إلى النهر ، لقد أخذت المفتاح هذا الصباح ، وربطت قارباً إلى الرصيف .

وهبط الاثنان إلى المدينة بخطوات سريعة .



الفصل الخامس والعشرون

طار العصفور

يذكر القارئ الموقف الصعب الذي تركنا فيه كازيمودو ، فقد اجتاحت الجموعُ الأحدب الشهم من كل جانب ، ولم يفقد شجاعته ولكنه فقد أمله في إنقاذ الإسميرالدة ، لم يكن يفكر في نفسه بل بها ، وكان يجري في الردهات ، وكادت كنيسة نوتردام تسقط بين أيدي اللصوص ، وفجأة ارتفعت أصوات سنابك الخيل تصطك على حجارة الساحة ، وملأت الطرقات عساكر الملك المدججة بالسلاح وسُمِعَ هتافهم : اقتلوا اللصوص .

ودافع اللصوص عن أنفسهم وقد فقدوا الأمل في النجاة ، واختلط الرجال بالفرسان ، وسمع الجيران أصوات العساكر ففتحوا النوافذ ، وبدأت الكُرات تنهمر على

الحرافيش من كل جانب فانهزموا مخلفين وراءهم ركاماً من الموتى .

حينما رأى كازيمودو هزيمة المهاجمين ، ولم يكن قد توقف عن القتال ركع على ركبتيه وهو يشكر الله على النصر .

وجرى في نشوة انتصاره إلى الحجرة التي حرم على نفسه دخولها ، وليس في ذهنه سوى فكرة زفّ بشرى النصر لتلك المرأة التي ناضل من أجلها ، وحين دخل الغرفة وجدها خالية .



أثناء مهاجمة اللصوص الكنيسة كانت الإسميرالدة نائمة ، وسرعان ما أيقظتها الأصوات المتصاعدة من الساحة ، وثغاء عنـــزتها القلقة ، وسمعت أصواتاً تمشي قريبة منها ، ودخل إلى حجرتها رجل يحمل فانوساً فأطلقت صرخة فزع قصيرة ، فقال لها صوت تعرفه :

– لا تخافي إني بيير غرينغوار .

فاطمأنت لرؤية الشاعر ، وكان معه شخص طويل القامة مرتدياً السواد من قمة رأسه إلى قدميه لا ينطق بكلمة .

وسألت الغجرية غرينغوار بصوت هامس :

– من معك ؟

– اطمئني ، إنه أحد أصدقائي .

ثم وضع الفيلسوف الفانوس على الأرض واحتضن العنـــزة جالي بين ذراعيه وقال للإسميرالدة :

– إن حياتك أنت وجالي في خطر ، فقد تقرر استعادتكما وإعدامكما ، وقد جئنا لإنقاذك فاتبعينا .

فسألته مرعوبة :

– هل تقول الحق ؟

– نعم .. إنه الحق .. أسرعي !

أمسك غرينغوار بيدها وحمل صاحبُه الفانوسَ وسبقهما .

وسيطر الرعب على الفتاة ولكنها مشت معهما .

وركضت العنـــزة وراءهم فرحة بلقاء غرينغوار ، فكان يتعثر في مشيته وهي تدس قرنيها بين قدميه .

نزلوا درجات الأبراج مسرعين وعبروا الكنيسة الغارقة في الظلمة والسكون ، وطرقات المهاجمين تتردد بين أرجائها حيناً بعد حين فتضاعف من سكونها ، وخرجوا إلى الساحة من الباب الأحمر .

وتوجهوا إلى قطعة من الأرض حول سور المدينة فكانت تصلهم الأصوات مخنوقة وأقل ارتفاعاً ، وسبقهم الرجل بالفانوس إلى رصيف مهجور وقد اختبأ فيه قارب صغير .

كان أول شيء فعله غرينغوار حين صعدوا إلى القارب أن وضع العنـــزة في حجره ، وجلس في مؤخرة القارب ، والتصقت به الفتاة كأنها تحتمي به من جزع خفي أصابها لرؤية صاحبه ذي الملابس السوداء .

وسار القارب هادئاً نحو الضفة اليمنى من نهر السين ، والفتاة ترقب الرجل الغريب خائفة لسبب لا تعلمه ، وقد انعكس ظله على المركب كأنه شبح مهيب ، ولم يكن قد تكلم حتى الآن بل يضرب بالمجذافين على سطح الماء .

– قال غرينغوار فجأة :

– حين وصلنا إلى الساحة عبر الطرقات فهل لاحظت يا صاحب النيافة ذلك الفتى الذي أمسك به الأحدب وضرب به الحائط ؟ إن نظري ضعيف فلم أتعرف عليه ، فهل تعرف من يكون ؟

لم يجبه الرجل ولكنه توقف عن التجذيف فجأة وكأنما شُلّتْ يداه وسقط رأسه على صدره وسمعَتْهُ يتحسر أسفاً .

وتحرك القارب باتجاه التيار بضع لحظات ، ثم استقام الرجل وأمسك بالمجذافين ، وجعل يوجه القارب ضد التيار ، واجتاز نقطة التقاء الجزيرة بنوتردام واتجه إلى بور أوفوان . وقال غرينغوار :

– إن صراخهم يرتفع الآن .

وأصاخوا بسمعهم ، فجاءهم هتافات الانتصار ، ورأوا لمعان خوذ الجنود على الأبراج وأسطحة الكنيسة تنعكس عليها أضواء المشاعل ، وسمعوا أصواتهم تنادي : " الغجرية .. الساحرة .. الموت للغجرية ! " .

وضعت البائسة وجهها بين كفيها وضاعف الرجل من تجذيفه نحو الضفة ، حتى حاذاها القارب .

توجه الرجل نحو الغجرية يساعدها على النــزول ، ولكنها تعلّقت بكم غرينغوار الذي دفعها عنه وحمل العنــزة واختفى بين البيوت ، ووجدت نفسها وحيدة على الرصيف مع الرجل المجهول .

فارتجفت رعباً ، وحاولت أن تتكلم ، تصرخ ، تنادي غرينغوار ، فاحتبس لسانها في فمها ولم يسمع صوتها ، وفجأة أحست بيد الرجل تمسك بيدها ، وكانت يداً باردة قوية ، واصطكت أسنانها وأصبح لونها شاحباً شحوب ضوء القمر الذي ينير المكان . لم يقل الرجل شيئاً ، وصعد بخطوات سريعة نحو ساحة كريف وهو يمسك بيدها ، ولم تجدْ بُدّاً من الهرولة لمتابعته .

وكانت تستعيد قوتها من حين إلى آخر ، وتقول بصوت يقطعه صوت أقدامهما على الطريق :

– من أنت ؟ من أنت ؟!

ولا يجيبها .

وسارا على طول الرصيف حتى وصلا ساحة فسيحة يضيئها نور القمر ، إنها ساحة كريف ، وفي وسطها صليب أسود مرتفع ، كان مكان الإعدام فعرفته ، وعلمت أين

تكون ، وكشف الرجل القبعة عن رأسه . فتمتمت مذعورة : أعرف أنه هو .

إنه القس ، الذي صار كالطيف حين انعكس عليه ضوء القمر وأصبح شاحب اللون . قال لها :

– اسمعي .. أريد أن أنقذك .

وارتجفت لهذا الصوت الذي لم تسمعه منذ زمن طويل .

فهل تصدقه ؟ إنه هو الذي دبّر هربها ولكن .. ألم يفعل هذا لخداعها ؟ وكان غرينغوار يعتبره صديقه .. أفلا يكون غرينغوار مخدوعاً به .. وأين هو الآن ؟

– اتركني .. إني أكرهك .. أنت مجرم !

وسقطت تحت نصب الصليب كأنها تستجير به ، وتأثر القس لقولها " مجرم " فهل يستأهل هذه الصفة ؟

وقال يحدث نفسه :

– قابيل ، ماذا فعلت بأخيك ؟

لولا ألاعيبه الشيطانية لعاش أخوه ذلك الفتى الأشقر ولما تحطم رأسه الجميل على جدار بيت الله .

وصعدت الدموع غزيرة إلى عينيه وسالت على خديه .

إن أخاه الصغير يوهان مات بسببه .

– كم أحببتُه ! وكم أعززتُه ! ولكني قتلته ، لقد مات بسببي .. مات بسبب هذه المرأة .

وحاول إقناعها مرة ثانية بصدق نواياه فقال :

– أستطيع إنقاذك .. وحدي .. تعالي !

فأجابته بإباء :

– لا .

فقال :

– موتي إذن تكفيراً عن خطاياك !

أشرقت الشمس ، ولم يكن وراء النوافذ أحد ، وكنت ترى في البعيد من أعلى أبراج نوتردام التي تطل على ساحة كريف رجلين اتشحا بالسواد تحت نور الشمس .

وقف الجلاد أمام الفتاة وأحاط عنقها بحبل ، فأحست البائسة بخشونة حبل القنب حول عنقها .

فاهتزت وصرخت بأعلى صوتها :

– لا .. لا .. لا أريد أن أموت .

الفصل السادس والعشرون

من أعلى الأبراج

حين رأى كازيمودو أن الحُجرة خالية من الغجرية وأنها قد اختطفت أثناء دفاعه عنها ، أمسك شعره بيديه وصرخ دهشة وألماً ، ثم بدأ يجري في أنحاء الكنيسة يبحث عن الغجرية ، ويصرخ صرخات مرعبة في أركانها ، وينثر شعره الأحمر على البلاط . في تلك اللحظة دخل العساكر منتصرين باحثين عن الغجرية ، وساعدهم الأحدب في بحثهم ظاناً أن الحرافيش هم أعداؤها .

وتابع كازيمودو وحده بحثه عنها ، وكان يمر بالمكان نفسه عدة مرات مطأطئ الرأس ساكتاً لا يكاد يتنفس ، وحين مر بالغرفة لم يجرؤ على دخولها ، ثم استجمع شجاعته ودخلها فلم يجد أحداً ، فأطفأ شعلته تحت قدميه ، ودون أن يتكلم أو يتحسر ضرب الجدار برأسه وسقط مغشياً عليه .

وتذكر بين الحلم واليقظة أن رئيس الأساقفة كلود فرولو هو الذي يحمل مفتاح الدرج المؤدي إلى الغرفة ، وتذكر آلاف التفاصيل التي تؤكد له أنه هو الذي اختطفها لكي يسلمها إلى أعدائها ، ورآه من بعيد يتمشى بخطا بطيئة حول البرج الشمالي ، ولكن وجهه ينظر إلى الضفة اليمنى من نهر السين ، فنهض كازيمودو وتبعه .

كان يمشي وراءه بخطى الذئب ليرى أي شيء جذب انتباه رئيس الأساقفة ، وكان غارقاً في تأملاته حتى إنه لم ينتبه إلى الأحدب وراءه .

وأما النار التي أشعلها كازيمودو بين الأبراج فقد انطفأت ونظفت الساحة من الجثث المتراكمة بأن ألقيت في السين .

في الأعلى .. هناك فوق الأبراج ارتفعت زقزقة العصافير ، ولكن القس لم يلتفت إليها ، فهو من أولئك الناس الذين لا يبصرون نور الصباح ولا العصافير والأزهار ،

ومن سعة هذا الأفق المحيط به لم يكن يتأمل سوى نقطة واحدة .

وتحرق كازيمودو شوقاً لسؤاله عما فعل بالغجرية ، ولكن يبدو على القس في تلك اللحظة أنه بعيد عن الدنيا كلها .

كان صمته مهيباً لم يجرؤ كازيمودو على توحشه أن يزعجه ، ولم يجد جواباً لما يجيش في نفسه سوى متابعة الاتجاه الذي يرمي إليه بصره ، وتوقفت نظرات الأحدب على ساحة كريف ، ورأى ما ينظر إليه القس ، رأى السلم الذي أسند إلى منصة الإعدام الدائمة .

وكان في الساحة بعض الناس وكثير من الجنود ورجل يجر على بلاط الطريق شيئاً أبيض قد تعلق به شيء أسود ، ورآه كازيمودو بوضوح ، إنه يرقى سلم منصة الإعدام ، حاملاً امرأة فوق كتفه ، فتاة مرتدية ثياباً بيضاء وفي عنقها حبل معقود ، وعرفها كازيمودو .. إنها هي . وارتقى الرجل

السلم لكي يُحْكِم شدّ الحبل حول عنقها ، وجثا القس على ركبتيه ليرى بوضوح أكثر .

دار الحبل حول ذاته عدة مرات ورأى كازيمودو جسد الغجرية يرتجف ، ومد القس عنقه وعيناه قد جحظتا من محجريهما ، يرى الرجل والمرأة من بعيد . في تلك اللحظة المرعبة انطلق من حنجرة القس ضحك شيطاني ، ضحك لا يصدر عن إنسان ، والتمع وجه القس بضوء شاحب ، ولم يسمع كازيمودو ضحكه بل رآه .

تراجع الأحدب عدة خطوات ، ثم هجم على القس هائجاً وجعل يديه في ظهره ودفع كلود فرولي نحو الخواء الذي ينظر إليه ، وصرخ القس :

– اللعنة !

وهوى ، ولكن المزراب الذي كان تحته أوقف سقطته فتمسك به بيديه فاقداً الأمل ، وفتح فمه ليصرخ من جديد

فرأى فوقه وجه كازيمودو المرعب المتعطش للانتقام ، فسكت .

كان الفراغ تحته ، وسقطةٌ ارتفاعُها مائتا قدم بانتظاره ، وكان بوسع كازيمودو أن يمد يده إليه لينتشله منها ولكنه لم ينظر إليه ، بل ينظر إلى الغجرية ، واتكأ الأحدب على الإفريز الذي وقف بجانبه القس قبل قليل ، ولم يكن يهمه في هذا العالم سوى ذلك الثوب الأبيض الذي يتأرجح معلقاً بحبل المشنقة ، كان صامتاً ساكناً مصعوقاً وسيل من الدمع ينهمر من عينه الوحيدة ، تلك العين التي لم تذرف الدمع قبل الآن سوى مرة واحدة .



أثناء ذلك كان القس يلهث والعرق يتصبب من جبينه ، والدم ينضح من أظافره على الحجر ، وركبتاه التصقتا بالجدار .

كان شيئاً رهيباً سكوتُ هذين الرجلين ، على حين تفيض روح القس على بعد خطوتين من كازيمودو ، وكان كازيمودو يبكي وهو ينظر إلى ساحة كريف .

رأى القس أن المزراب ينوء به فلم يتحرك ، واعتنق المزراب وقد حبس أنفاسه ، ولم يكن شيء يدل على حياته سوى خفقان صدره ، وتأمل واحدةً تلو أخرى تلك المنحوتات الحجرية ، تراقبه من فوق الأبراج ولكنها لا ترثي له ، كل شيء مما حوله حجر ، أمام بصره تماثيل الوحوش من حجر ، وتحت قدميه حجر ، والساحة مرصوفة بالحجر ، وكازيمودو ساكناً يبكي كقطعة من حجر .

تجمع في الساحة بعض الفضوليين يتساءلون عمن يكون هذا المجنون الذي يلهو بهذه اللعبة الخطيرة ، وسمع القس حديثهم الذي يصل إليه واضحاً :

– ستدق عنقه .

وكازيمودو يبكي .

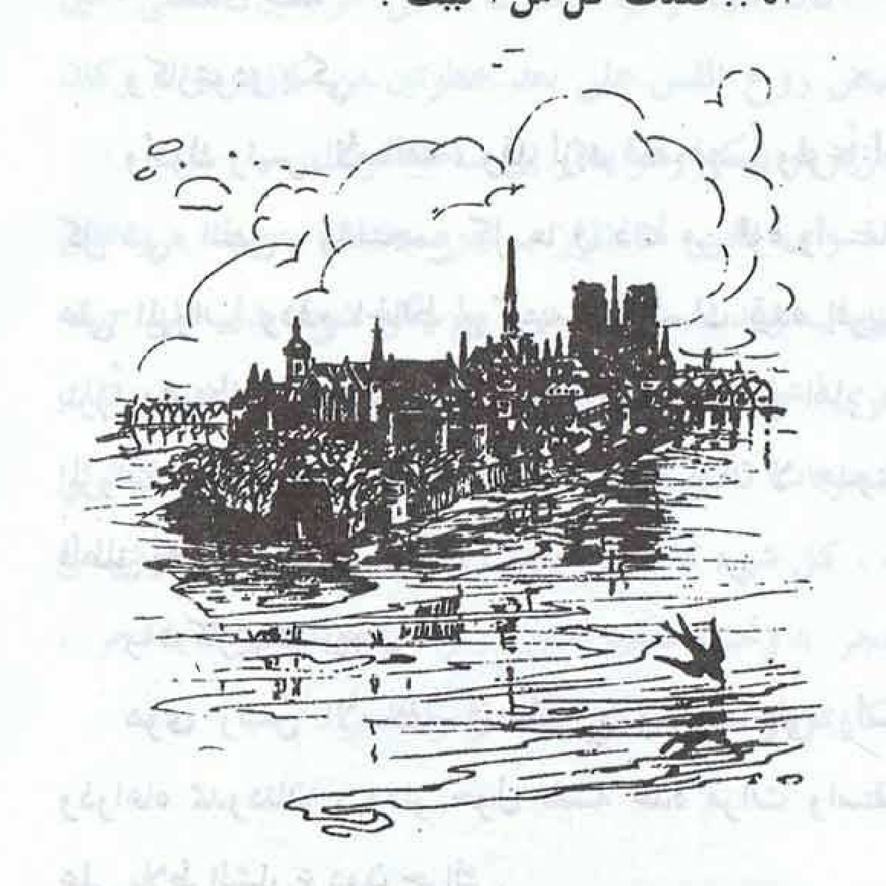
وأدرك رئيس الأساقفة ، وقد أزبد فمه غضباً وفزعاً أن كل شيء انتهى ، واستجمع كل ما في ذاته من قوة واستقام على المزراب ودفع الحائط بركبتيه ، وأمسك بيده إفريزاً بارزاً واستطاع أن يرتفع قيد قدم واحدة ، ولكن انهار به المزراب وانشق صدر ثوبه الكهنوتي ، وأحس أن لا جدوى فأطلق يديه .

رآه كازيمودو يهوي .

هوى رئيس الأساقفة في الفراغ وسقط على رأسه وذراعاه ممدودتان ، ودار حول نفسه عدة مرات واستقر على بلاط الشارع دون حراك .

رفع كازيمودو عينه عن الثوب الأبيض المتطاير في الهواء ، ونظر إلى رئيس الأساقفة الذي فقد شكله الإنساني ممدوداً على البلاط ، وقال منتحباً وصدره يعلو من الأنين :

– آه .. فقدتُ كل من أحببت .



الفصل السابع والعشرون

نهاية

مساء ذلك اليوم ، حينما حضرت الهيئة الدينية لتشهد رفع جثة رئيس الأساقفة المهشمة من الساحة ، كان كازيمودو قد اختفى من كاتدرائية نوتردام .

ودار لغط كثير حول هذه القضية ، وقالوا إن مصرع القس قد تصادف مع اختفاء كازيمودو الشيطان طبقاً لعقد بينهما ، إذ أن الشيطان كازيمودو قد حطم جسد القس ، واستل منه روحه كما يفعل القرد حين يكسر جوزة الهند ليأكل لُبَّها ، لذلك لم يدفن رئيس الأساقفة في مقابر المؤمنين .

أما بيير غرينغوار فقد استطاع إنقاذ العنـــزة وأحرز نجاحاً باهراً في المسرح التراجيدي ، والظاهر أنه بعد أن ذاق طعم الفلسفة والهندسة المعمارية والعلوم السرية وكل هذه الأعمال الجنونية عاد إلى التراجيديا التي هي أكثرها جنوناً .

ويمكننا القول إن نهايته كانت تراجيدية .

أما فوبوس دي شاتوبرس فقد تزوج ابنة عمه الحسناء فلورديلي وعاشا حياة هانئة ، ولم يزعم أحد أن مزاج الضابط قد تبدل ، إذ يراه الناس دائم الغمّ والتفكير .

الفهرس

روايات عالمية للناشئة

أحدب نوتردام

فيكتور هيغو

RABIE

H.FARHAT